

في أزمة الثقافة المصرية

120

رجاء النقاش

تقديم : فكري النقاش

فى أزمة الثقافة المصرية

رجاء النقاش

تقديم:
فكرى النقاش

وزارة الثقافة



سلسة
ذاكرة الكتابة

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• فى ازمة الثقافة المصرية
• رجاء النقاش
• الطبعة الأولى
دار الآداب - بيروت ١٩٥٨
• الطبعة الثانية:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2010م
16٫5 × 23٫5 سم
• تصميم الغلاف: فكرى يونس
• رقم الإيداع: ١٩٤٧٩/ ٢٠١٠
• الترقيم الدولى: 978-977-704-318-2
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: ١٦أ شارع أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

ذاكرة الكتابة (120)

تعنى بنشر أبرز الأعمال الفكرية والأدبية والنقدية التى طبعت فى بدايات القرن العشرين



فى أزمة الثقافة المصرية

تقديم

فكرى النقاش

كتاب "فى أزمة الثقافة المصرية" بين كتب الراحل رجـــاء النقاش – التى تربو على الأربعين كتابا– كتاب له أهمية خاصة.

وأول أسباب هذه الأهمية هو أنه كتابه الأول على الإطلاق، فقد صدر هـــذا الكتاب فى يناير ١٩٥٨، ولم يكن رجاء النقاش قد أتم عامه الرابع والعشـــرين بعـــد، وثانى هذه الأسباب أن مقالات هذا الكتاب قد كتبت بين أعـــوام ١٩٥٥، ١٩٥٧، وهذه الفترة لمن عاشها أو يعرفها كانت فترة مليئة بالأحداث السياسية والاجتماعيـــة، وثالث هذه الأسباب هو الموضوعات التى يناقشها الكتاب وربما كان أكثر مـــا يـــثير الدهشة هو أن معظم القضايا التى أشار إليها رجاء النقاش فى مقالاته تلك مازالت إلى حد بعيد موضوع جدل ثقافى واجتماعى حتى أيامنا هذه، وليس أدل على ذلك مـــن هجومه القوى العميق الموجه ضد التدخل الأمريكى فى شئون الثقافة العربية، والـــذى يرتدى اليوم ثيابا جديدة بأسماء جديدة وأسلحة أكثر قوة ودهاء.

والسبب الرابع من هذه الأسباب هو أننا إذا تتبعنا مواقف رجـــاء النقـــاش وقناعاته الفكرية الواردة فى الكتاب فسوف نجده قد ظل وفيا لهذه الأفكـــار وهـــذه القناعات، ولم يتخل عن أساسياتها فيما قدمه بعد ذلك من كتب ومقالات، ولكن هذا الثبات لم يدعه إلى تحجر الأفكار أو الابتعاد عن التيار الثقافى والاجتماعى العام.

وخامس هذه الأسباب ولعله أهمها على الإطلاق هو منهجه الفكرى الذى بدأت ملامحه تتجلى بوضوح فى مجمل مقالات الكتاب الذى بين أيدينا، هذا المنهج الذى لم يتخل عنه رجاء النقاش طيلة حياته كما أوضح الدكتور سهيل إدريس فى مقدمته للكتاب، وأنا أضيف هنا إلى هذا المنهج تلك النزعة الأخلاقية والتى لم يتخل عنها رجاء النقاش طيلة حياته حتى فى خضم معاركه العنيفة التى اضطر إلى خوضها مرات عديدة – وهى قليلة فى مساره العام–، ولكن لهذه المعارك شأن آخر يحتاج إلى دراسة ليس هنا مجالها.

ولكن العجيب أن نجد شابا لم يبلغ الرابعة والعشرين من عمره فى منتصف خمسينيات القرن العشرين يدرك بوضوح أهمية الثقافة العربية وتاريخها وأعلامها، ويدرك مدى حساسية العلاقة بين هذه الثقافة وبين الثقافة الغربية، ويدرك أيضا طبيعة الإنتاج الثقافى للأجيال السابقة عليه والتى أعجب بها أيما إعجاب ولكنه لم يسمح أن تطمس هذه الأجيال العظيمة وإنتاجها الضخم، كما لم يسمح لبصيرته النقدية أن تغفل عن مواطن الضعف ومواطن القصور فى إنتاج هذه الأجيال، فهو قد عرف بوضوح رؤية الظروف الاجتماعية والسياسية بل والشخصية التى خرجت منها هذه الأجيال وأخرجت لنا إنتاجها الفكرى والثقافى الكبير إلى الوجود وإلى التأثير والفعالية، وهو يضع يده على ضرورة ارتباط الثقافة بحياة أكثرية الشعب الذى كان يعانى – وما زال إلى حد بعيد– من الأمية، ويدرك أيضا خطورة أن تسقط الأدوات الإعلامية الجديدة – كالصحافة والإذاعة والسينما– فى السطحية والبعد عن حقائق المشاكل التى يعانى منها المجتمع، وربما كان هذا الكتاب هو أول من أشار إلى منهج جديد ونمط شعرى جديد كان قد بدأ فى البزوغ والصعود أيامها فقد كان هو أو من أشار إلى اسم صلاح جاهين وفؤاد حداد فى هذا الوقت المبكر عام ١٩٥٦.

وخامس هذه الأسباب ولعله أهمها على الإطلاق هو منهجه الفكرى الذى بدأت ملامحه تتجلى بوضوح فى مجمل مقالات الكتاب الذى بين أيدينا، هذا المنهج الذى لم يتخل عنه رجاء النقاش طيلة حياته كما أوضح الدكتور سهيل إدريس فى مقدمته للكتاب، وأنا أضيف هنا إلى هذا المنهج تلك النزعة الأخلاقية والتى لم يتخل عنها رجاء النقاش طيلة حياته حتى فى خضم معاركه العنيفة التى اضطر إلى خوضها مرات عديدة – وهى قليلة فى مساره العام–، ولكن لهذه المعارك شأن آخر يحتاج إلى دراسة ليس هنا مجالها.

ولكن العجيب أن نجد شابا لم يبلغ الرابعة والعشرين من عمره فى منتصف خمسينيات القرن العشرين يدرك بوضوح أهمية الثقافة العربية وتاريخها وأعلامها، ويدرك مدى حساسية العلاقة بين هذه الثقافة وبين الثقافة الغربية، ويدرك أيضا طبيعة الإنتاج الثقافى للأجيال السابقة عليه والتى أعجب بها أيما إعجاب ولكنه لم يسمح أن تطمس هذه الأجيال العظيمة وإنتاجها الضخم، كما لم يسمح لبصيرته النقدية أن تغفل عن مواطن الضعف ومواطن القصور فى إنتاج هذه الأجيال، فهو قد عرف بوضوح رؤية الظروف الاجتماعية والسياسية بل والشخصية التى خرجت منها هذه الأجيال وأخرجت لنا إنتاجها الفكرى والثقافى الكبير إلى الوجود وإلى التأثير والفعالية، وهو يضع يده على ضرورة ارتباط الثقافة بحياة أكثرية الشعب الذى كان يعانى – وما زال إلى حد بعيد– من الأمية، ويدرك أيضا خطورة أن تسقط الأدوات الإعلامية الجديدة – كالصحافة والإذاعة والسينما– فى السطحية والبعد عن حقائق المشاكل التى يعانى منها المجتمع، وربما كان هذا الكتاب هو أول من أشار إلى منهج جديد ونمط شعرى جديد كان قد بدأ فى البزوغ والصعود أيامها فقد كان هو أو من أشار إلى اسم صلاح جاهين وفؤاد حداد فى هذا الوقت المبكر عام ١٩٥٦.

إننى ليشرفنى أن أقدم للقارئ هذا الكتاب الهام بالنسبة لكاتبه والذى أظن أنه ما زال هاما بالنسبة للقارئ المعاصر، ولتعرف الأجيال الجديدة جذور حياتها الثقافية التى تعيشها الآن من أين بدأت؟ وأين ينبغى لها أن تسير وتتقدم؟.

وربما كان من المهم هنا أن أشير إلى هجوم رجاء النقاش فى مقالات هذا الكتاب على مؤسسة أخبار اليوم، تلك المؤسسة التى كانت تمثل إعجابا شديدا بالنمط الأمريكى فى الثقافة والحياة وكانت تعد لإصدار طبعات عربية من الصحف الأمريكية المعروفة، وإن كان رجاء النقاش أيامها قد طالب بتأميم هذه المؤسسة وهو الأمر الذى حدث بعدها بسنوات قليلة مما كان يتوافق مع سياسات المد القومى العربى أيامها، وهو الأمر الذى ما زال الواقع يثبت صحته كل يوم بالرغم من توارى العروبة وخفوت صوتها بل والهجوم العنيف فى أحيان كثيرة عليها حتى كادت أن تصبح سبة لمن ينادى بها، وأتمنى أن يلتفت القارئ إلى كلمة الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور على ظهر الغلاف الأخير للكتاب، فبالرغم من الشاعرية التى تصبغ الكلمة إلا أنها كلمة تصور رجاء النقاش ككاتب تصويرا دقيقا صادقا.

فى العدد الذى أصدرته مجلة "الهلال" عن رجاء النقاش قبل وفاته بعام أجرى رئيس تحريرها حوارا مطولا مع رجاء النقاش تصدر العدد، جاء فى هذا الحوار على لسان رجاء ما يعنى أنه يتمنى أن نهتم فى مسار حياتنا بثقافة القرن العشرين فى مصر، وتمنى أن تعاد دراسة هذه الثقافة بشكل عميق نظرا لأهميتها وأهمية أعلامها فى كل مراحلها، وربما جاء كلامه هو نفسه فى هذا الكتاب عن مفهوم تحرير المرأة لدى قاسم أمين نموذجا لإعادة النظر فى ثقافة القرن العشرين بشكل جديد وعميق.

وأنا أدعو القارئ هنا أن يقرأ هذا الكتاب ليفكر فيما ورد فيه من أفكار وأراء، وأن يستمتع بأسلوب رجاء النقاش ولغته الرفيعة السهلة ليعرف نمطا من المثقفين المصريين عاشوا فى القرن العشرين، لقد كان رجاء النقاش نموذجا مثاليا لمثقف من هذا الزمان فى أعماله وحياته.

مقدمة

بقلم الدكتور سهيل ادريس

منذ الحرب العالمية الثانية ، واجهت الثقافة العربية ، ولا تزال تواجه ، عهداً جديداً من حياتها يتسم بطابع النزوع الى التحرر من التقليد ، ومحاولة خلق قسمات مستقلة تبرز شخصية هـــذه الثقافة متميّزة الملامح والخطوط .

ولا شك في ان هذه السنوات القلائل التي تنتظم هـــذا العهد الجديد تحتـاج الى مثلها قبل ان نستطيع الحكم على هذه الملامح والخطوط ؛ ذلك ان هذا العهد هو عهد انتقال وتلمّس وتمخُّض ، وان التيارات الثقافية التي تضطرب فيه ما تزال في صراع وتنافس شديدين . ومرجع ذلك هو من غير ريب ارتباط هـــذه الثقافة ارتباطـــاً أشد واوثق من السابق بالوضع العام للوطن العربي في ابعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وهـــذه هي الخصيصة

الجديدة التي تميّز هذه المرحلة من الثقافة العربية عن جميع المراحل السابقة منذ عهد النهضة . فقد كانت تلك المراحل ضعيفة الصلة بالاوضاع العامة التي تكيّف البناء الحضاري الى حد بعيد ، ولهذا برزت تلك الفجوة العميقة بين الثقافة والحياة إجمالاً ، وبدا ان اكبر همّ للمرحلة الجديدة في الثقافة هو ان تملأ هذه الفجوة وتجعل العلاقة بين الفكر والحياة علاقة تفاعل عميق متصل .

والواقع انه ليس أعسر ولا أشقّ من التأريخ لهذه الفترة الانتقالية التي تمهّد لانبثاق فكر عربي جديد يُسهم إسهاماً فعّالاً في خلق الحضارة العربية الجديدة. فانّ تعقّد الصراع بين التيارات، وتلمّس الصلات والعلائق بين معطيات الحياة ومظاهر الثقافة ، وتحليل الآثار عبر ارتباطها بالمجتمع ، إنّ ذلك كلّه يقتضي جهداً وصبراً لايحتملهما الاّ القليل .

واذا كان هذا الكتاب يتحدث « في ازمة الثقافة المصرية » فهو في الوقت نفسه يتحدث في ازمة الثقافة العربية عموماً . ذلك ان الاوضاع العامة في مصر شبيهة بالاوضاع العامة في سائر البلاد العربية اذا نظرنا الى حالة الشعب العربي في كل مكان . ولئن كان المجرى السياسي في جزء من هذه البلاد يختلف عنه في جزء آخر ، وكان الوضع الاقتصادي متفاوتاً بين هذه الاجزاء ، وكذلك الوضع الاجتماعي ، فان هناك عاملاً هاماً جداً يشترك فيه الشعب العربي كلّه ، على اختلاف مواطنه وتباعدها ، هو الوعي . ولا شكّ في أنّ هذا الوعي هو الذي سيزيل عاجلاً ام آجلاً هذه الفروق، ويصهر تلك الاختلافات، ويوحّد الاتجاهات الفكرية والمصادر الثقافية .

فلا مفرّ لنا من الاعتراف إذن بأنّ من يؤرّخ لهذه الفترة من حياة الثقافة المصرية ، يؤرّخ الى حدّ بعيد للثقافة السورية واللبنانية والعراقية وسواهـــا من الثقافات التي شاركت في بعث النهضة وتعرّضت جميعاً لمؤثرات متشابهة طوال قرن من الزمن . ولهذا نحبّ ان نرى في هذا الكتاب الصغير رصـداً لمظاهر الحياة الادبية في الوطن العربي كلّه ، بالرغم من أنّ اهتمامه ينصبّ على الاوضاع والمؤسسات في مصر وحدها . وقد نخالف في هـذا رأي المؤلف الذي يعبّر عنه في «التمهيد» .

ولكن المؤلف يرصد ، في الواقع ، الاتجاهات الكبرى للثقافة ، من غير ان يقف على الظواهر الفردية ، الاّ اذا شاء ان يربطها بهذه الاتجاهات الكبرى التي نلمحها في كل انتاج ادبي في مختلف البلدان العربية . فهو مثلاً يتحدث حديثـاً طويلاً عن القوى التي كانت تؤخر تطوّر الشعب المصري وتمسكه دون الانطلاق فيردّها الى ثلاث : المستعمر والسراي والاقطاع . واذا تأملنـا الاوضاع في سائر البلاد العربية ، استطعنا ان نجد هذه القوى الثلاث قائمة في كل مكان تحطّم عجلة الوعي والتطور . وفي الكتاب حديث عـــن «المخدرات الفكرية» ، وهي مخـدّرات لا تقتصر على مصر وحدها بل تمتدّ أيدي أخطبوطها الى كل بلد عربي . فلسنا نخطيء إذن حين نجد في هذا الكتاب القيّم تخطيطاً واضحاً للاوضاع الثقافية في مختلف الاقطار العربية .

وميزة هذه الابحاث جميعاً تكمن في انهـــا لا تبحث القضية الثقافية الاّ من خلال القضية الاجتماعية بكل ابعادها ، ولا سيا

البُعد الاقتصادي الذي يرتبط بقيمة عظمى في مصر . والمؤلف يتبدّى في ذلك مؤرّخاً ادبياً من الطراز الاول ، اذ هو يرصد الحياة الفكرية بكل ينابيعها وكل روافدها ، ولا يهمل ايّ عامل يمكن ان يخلّف أثراً في مجرى هذه الحياة . وهو إذ يعلق اكبر الأهمية على العامل السياسي في تطوّر الثقافة ، فانما يسجل واقعاً حسّاساً في حياة الشعب العربي الذي يستقطب اليوم كل همومه وشواغله في تحرير وطنه سياسياً واقتصادياً . وهو إذ يُلحّ على مسؤولية الكاتب في توعية الشعب ، وعلى تحمّله تبعة البناء على قدم المساواة مع السياسي المخلص ، فانما ينصّ على المهمة النبيلة التي لا يمكن لأي مفكر يعيش قضية وطنه ان يتخلّى عنها .

والى جانب ذلك ، يبدو الاستاذ رجاء النقاش محلّلا اجتماعياً وناقداً ادبياً عميق الثقافة واسع الافق . فهو اذا تناول كتاباً بالدراسة ، لا يكون قصاراه ان يعدد محاسنه ومساوئه . وانما يحاول ان يقيّمه بالنسبة لعصره ويدرس تأثّره وتأثيره في المجتمع. وبوسع القارىء ان يرى ذلك في حديثه عن ديوان من الشعر الشعبي لصلاح جاهين . فهو قد بدأ البحث بحديث عن الشعر الشعبي إجمالاً يستطيع ان يموضع هذا الديوان فيه ، ثم درس اصوله وامتداداته ؛ وهكذا اعطانا فكرة واضحة عن قيمة الكتاب ، وأتاح لنا فرصة دراسة الشعر الشعبي بالاجمال . وهذا ما ينحو بالنقد الادبي منحاه الصحيح اذ يجنّبه ان يكون من الادب الطفيلي ويجعله فنّاً خاصّاً بذاته لا يقلّ اهمّية عن الفنّ الذي يتناوله بالدراسة .

ولعلّ من أهم ميزات هذا الكتاب جرأته في تناول المؤسسات

الاجتماعية والثقافية بالنقد والتحليل، من غير محاباة او تملق او رياء. وفي هذه الفصول ثلاثة امثلة بارزة : اولها الحديث عن « الازهر » وتأثيره في مجرى الحياة الفكرية واقتراحاته في اصلاح الدراسة فيه، خصوصاً بالغاء التعليم قبل الجامعي في فروعه ؛ وثانيها الانتقاد الشديد اللاذع لمؤسسة فرانكلين وسواها من المؤسسات التي تحاول تشويه الثقافة العربية وتوجيهها توجيهاً منافياً للمصلحة القومية ؛ وثالثها الهجوم العنيف على دار « أخبار اليوم » المصرية . فان من يعرف مدى تأثير هذه المؤسسات الثلاث في حياة عدد كبير من المؤلفين والكتّاب ، يدرك الجرأة التي تدرّع بها المؤلف في توجيه النقد الشديد لها .

وبعد فيُسعد « دار الآداب » ان تقدّم هذا الكتاب الصغير الكبير الأهمية الذي يعطي القارىء خير نموذج للدراسة الادبية التاريخية النقدية ، والذي سيكون من غير شك خير مرجع لتأريخ هذه الفترة الأخيرة من حياة الفكر العربي عامة، والمصري خاصة.

سهيل ادريس

تمهيد ..

عنوان هذا الكتاب غريب عند النظرة الأولى على الجيل الذي تفتح وعيه مع ظهور مبدأ على غاية من الأهمية بالنسبة للحركة التاريخية الراهنة هو مبدأ القومية العربية ...

وإذا نظرنا من خلال هذا المبدأ نظرة سريعة شكلية إلى عنوان الكتاب لوجدنا العنوان متناقضاً مع المبدأ ، إذ كان من الواجب – حسب هذه النظرة السريعة – أن يكون عنوان الكتاب هو « في أزمة الثقافة العربية » لا « في أزمة الثقافة المصرية » ...
ولكنها نظرة سريعة شكلية كما قلت ...

فالقومية العربية ليست مبدأ يقوم على الاصطلاحات الشكلية الجامدة ، والذين أقاموا هذا المبدأ على أسس شكلية جامدة أساءوا إلى الشعب العربي في كل مكان ... والحقيقة التي ينبغي أن نؤمن

بها هي أنه من الضروري ألا نضع مبدأ القومية العربية في موضع التناقض مع العلم ، وعلينا أن نواجه الواقع بشجاعة وكما هو ، إذا ما أردنا أن نسيطر عليه ونعمل على تعديله وتغييره .

وهذا ما دفعني إلى الاعتراف بالحقيقة الكائنة ، وتقديمها في مجال التفكير والبحث على الحقيقة التي نود أن نخلقها لتصبح لها السيادة في مجال الواقع لأنها تتناسب مع إيماننا ومبادئنا وأفكارنا حول المستقبل .

ومن الحقائق الموجودة فعلا أن الثقافة في مصر قد انعزلت فترة طويلة عن الثقافة العربية في غيرها من أجزاء وطننا العربي ، وذلك لأنها عاشت في ظروف خاصة ، وتأثرت بعوامل مستقلة ، واكتسبت من هذه الظروف وتلك العوامل شخصية لا مفر من تسميتها بالشخصية المصرية في الثقافة ...

فالثقافة المصرية من خلال الظروف التاريخية المختلفة قد استقلت عن الثقافة العربية في الأقطار الأخرى ، ومن هنا فإنك كثيرا ما تجد ظاهرة ثقافية واضحة في مصر ، دون أن تعثر على ما يشابهها في بلد عربي آخر ، وليس الاختلاف الثقافي هو الاختلاف الوحيد بين مصر وبين غيرها من أجزاء وطننا العربي ، فإن هذا الاختلاف له جذوره في تركيب المجتمع نفسه ، فالتركيب الاجتماعي لمصر يختلف عنه في لبنان أو العراق أو المغرب العربي ... وقد ساعد هذا كله على ظهور وحدات ثقافية مستقلة في دائرة الوطن العربي، على أن هذا لا يطمس حقيقة أخرى على جانب كبير من الأهمية، وتلك هي أن العنصر الجوهري في الوحدات الثقافية المستقلة داخل

اطار الثقافة العربية ... هذا العنصر الجوهري واحد في الثقافات العربية المختلفة ، وهذه الحقيقة الأخيرة تعني أن المستقبل سوف يحمل الكثير من المحاولات الناجحة في الكشف عن هذا العنصر الجوهري الواحد ، وسوف يؤدي هذا الكشف بدوره إلى مزيد من التوحيد والتقارب بين التيارات المختلفة للثقافه العربية .

من هذه الخطوط العامة يتضح أننا إذا تحدثنا عن أزمة الثقافة المصرية ، فإن هذا يختلف عما إذا تحدثنا عن أزمة الثقافة العربية بصورة عامة .

على أن الاختلاف بين الثقافة المصرية وغيرها من ألوان الثقافة العربية لا يعني التناقض بحال من الأحوال ، فالمسألة على وجهها الصحيح هي أن فكرة القومية العربية انما تعني أن مصر بلد عربي وجزء من الأمة العربية ، فأي تعمق في فهم الشخصية العربية في صورة من صورها انما هو في الواقع تعمق في فهم الشخصية العربية في صورة من صورها هي الصورة المصرية . إن الشخصية المصرية لا تتناقض أبدا مع الشخصية العربية ، كل ما هنالك أن الشخصية العربية هي الدائرة الواسعة التي تدخل ضمنها دوائر أخرى تحمل نفس الخصائص الرئيسية وتتميز ببعض الخصائص المستقلة ، وقد ساعدت عوامل معينة على توسيع الاختلافات بين الدوائر الصغيرة ، وكان الاستعمار على رأس هذه العوامل .

وهذا الكتاب محاولة لتأريخ الحركة الثقافية في مصر خلال ثلاث سنوات تبدأ من سنة ١٩٥٤ إلى سنة ١٩٥٧ ، ولسنا مبالغين إذا أطلقنا على هذه السنوات الثلاث اسم « سنوات الأزمة » فقد كان الصراع خلال هذه السنوات حاداً عنيفاً بين شتى العقائد

والأفكار ، ذلك لأن المجتمع في مصر كان يناضل من أجل إيجاد شكل جديد له بعد أن انهار الشكل القديم سنة ١٩٥٢ . لقد كان المجتمع يتجدد في علاقاته الداخلية وعلاقاته الخارجية ، وكانت عملية التجدد صعبة مرهقة ، وكانت تستدعي كثيراً من الاحتشاد والعمق والحذر .

وكان من ضمن الواجبات الملقاة على عاتق القوى الجديدة في مصر واجب خطير هو مراجعة ما ورثناه من العقائد في الثقافة والمجتمع والاقتصاد بل وفي النظرة إلى الإنسان وتقييمه ، فهذه المراجعة تتيح الفرصة للنقد الذاتي ، وتتيح الفرصة للتعديل وللبناء من جديد .

وهذا الكتاب محاولة للمساهمة في عملية المراجعة التي تهدف الى التغيير والتعديل ، ومن هنا فلم يكن تأريخ الحركة الثقافية فيه مستقلاً عن تأريخ الحركة الاجتماعية ، كما أنه لم يكن يعتمد على سرد الأحداث والوقائع ، بل كان يستفيد منها في الوصول إلى دلالات معينة على واقع ثقافي قائم أو ينبغي أن يقوم ... إن الكتاب محاولة «للتأريخ النقدي» إذا صح التعبير ، فهو لا يجمع الحقائق وإنما ينقد ، ويفسر ، ويشير برأي .

وخلال الحركة العنيفة في السنوات الثلاث التي يتحدث عنها الكتاب أصبحت فكرة القومية العربية في مصر فكرة فعالة لأول مرة ، لقد أخذت هذه الفكرة تؤثر وتساهم في تشكيل المجتمع بأوضاعه وعقائده ، وهذه الفكرة وإن لم تصل بعد إلى نتائج حاسمة في مجال الثقافة فإنها تعد بالوصول إلى هذه النتائج ... ومن

بين الواجبات التي أخذ هذا الكتاب على عاتقه: أن يشرح الظروف التي ظهرت فيها فكرة القومية العربية، والظروف التي جعلت منها عنصراً حياً سوف يلعب دوره الكبير في المستقبل عـــن طريق واضح وعلمي .

فإلى الذين يؤمنون بالقومية العربية كحقيقة علمية لا كانفعال غامض وإلى الذين يؤمنون بضرورة تغيير المجتمع في مصر وفي شتى أجزاء الوطن العربي حتى يكون مجتمعاً عادلاً نبيلاً يعرف قيمة الإنسان ويعرف قيمة جهوده في هذه الحياة، وإلى الذين يؤمنون بضرورة إيجاد إنسان عربي جديد، يحمل مسؤليته في بناء مجتمعه، ويعمل بوعى ومحبة من أجل بلده ومن أجـــل الإنسانية ... إلى الذين يؤمنون بهذا كله عن طريق الوعي الواضح ، والنقد الذاتي المستمر ، والإيـــان بمفاهيم جديدة : للعمل والصداقة والحب ، والإيمان على وجه الخصوص بتفضيل مصلحة الجماعة عـــلى المصالح الفردية العاجلة ... إلى المؤمنين بهذا كله أتقدم بهذا الكتاب .

القاهرة ـ يناير سنة ١٩٥٨ **رجاء النقاش**

١ ـ مصر والثقافة الامريكية

من أبرز ظواهر النشاط الثقافي في مصر هذه الكتب التي تصدر بكثرة غير منظمة باشراف مؤسسة فرانكلين الأمريكية التي تتخذ من القاهرة مركزاً تطلق منه إشعاعاتها المختلفة إلى شتى أنحاء الوطن العربي . وقد بدأت هذه المؤسسة في القيام بدورها منــذ ثلاث سنوات على التقريب . والاتجاه الذي تمثله المؤسسة لم يكن ضئيلا ولا عديم الأثر قبل أن تقوم عـلى خدمته ، وتعمل بوسائل متفاوتة في درجتها ونوعها على خلق الأثر الذي تهدف إليه كرسالة كبرى لها ، فلقد مهد لهذا الدور عدد كبير من دور النشر التجارية الكبيرة ودور الصحـافة المعروفة ، فلم تكن صحف هـذه الدور المختلفة أو كتبها الدورية تعمل على خدمة الثقافة كوسيلة مـــن وسائل توعية الأفراد بما لهم من مشاكل وما يقف في حياتهم من عقبات تعوق نمـوهم وتطورهم بل هي مؤسسات تخدم — لأهداف

تجارية ـ ثقافات مسمومة لاتعالج مشاكل المجتمع، ولاتعاون كفاحه من أجل استقلال الوطن واستقلال الفكر والشعور . . . لقد كانت تهدف إلى الكسب المادي والإثراء على حساب الطبقات المكافحة من أبناء الشعب ونتيجة لارتباطها بالقوى التي يهمها أن تستقر الأوضاع في المجتمع المصري على أساس من الظلم والخطأ في توزيع العمل والثروة، وعلى أساس من استمرار التبعية لدول الاستعمار الكبرى.

خرجت مؤسسة فرانكلين إلى الحياة لتعمل على بلورة اتجاه قائم بالفعل في مصر ، واعتمدت على ثلاث وسائل أساسية تآزرت معها بعض الوسائل الفرعية الأخرى .

وأولى هذه الوسائل هي العمل على شغل دور النشر الكبرى(١) وتوجيه إمكانياتها المختلفة إلى خدمة لون معين من الإنتاج ، وقد نجحت المؤسسة في هذا الدور نجاحاً كاملاً فأصبح الإنتاج الأدبي الذي يصدر عن دور النشر الكبرى في مصر محصوراً في هذا الإنتاج الأساسي الذي يحقق لتلك الدور ماتبتغيه من كسب مادي بصورة كاملة ، ومن هنا لاتحاول تلك الدور أن تقوم بأي لون آخر من النشاط الثقافي بشكل يستجيب لحاجات الواقع في مصر ويعمل على خلق القارىء الواعي المدرك لوضعه من المجتمع والحياة، وأصبح ما يصدر عن هذه الدور إما صحفاً يشرف على النشاط الثقافي فيها من لا يخدمون فكرة مخلصة بقدر ما يثيرون الضباب حول مصير الفرد والمجتمع ، وإما آثاراً فكرية وفنية مستسلمة

---

(١) دار المعارف - الانجلو - النهضة - الهلال - اخبار اليوم .. الخ

بشكل مباشر أو غير مباشر لتوجيه مؤسسة فرانكلين أو كتبا تجارية يحتاج اليها طلبة الجامعة أو المدارس . والوسيلة الثانيه هى إغراء ذوى المراكز الثقافية الكبرى في مصر للقيام بالنشاط المطلوب ، وهم إما أساتذة في الجامعة أو كتاب لهم تاريخهم في الثقافة وشهرتهم لدى القراء ، أو جماعة من الشباب المثقف الذي كان من المنتظر أن يؤدى دورا له خطره في تاريخ الحياة والثقافة في مصر - فالذين يقدمون الكتب إلى القراء (١) أسماء لها خطرها المستمد من تاريخها الطويل لدى القارىء ، والذين يقومون بنشاط المؤسسة في الترجمة أو التأليف أسماء لامعة في مجالها أيضا إما لصلتهم الوثيقة بالقارىء وإما لمعرفة المشرفين على المؤسسة بما لهم من خطر وقوة يمكن أن يلتف حولها القراء في لحظة ما .

والوسيلة الثالثة وسيلة متصلة بالشكل ولكنها ذات خطر في المجال الثقافي خصوصاً في مراحل التكوين الأولى للثقافات القومية وهي المرحلة التي تمر بها الثقافة المصرية حيث تنزع الى ايجاد تلاؤم وتآزر بين عناصرها المبعثرة في التاريخ كأدبها الشعبي وبين ما ينبغي أن ترتبط به من آثار الذهن والوجدان في العالم . والثقافة المصرية تمر بهذه المرحلة في جو غير صحي ماتت سماحة هوائه وخصوبة ربيعه ، فكل نبت صالح فيه ينبغي لكي يعيش وينمو ان يكافح عددا لا يستهان به من الأعداء - وفي مثل هذا الوضع الراهن للثقافة المصرية تعتمد المؤسسة الأمريكية على وسيلة شكلية

---

(١) من هذه الاسماء : طه حسين ، العقاد ، علي ماهر ، هيكل ، احمد زكي ، السنهوري الخ ...

في نشر ما تخرجه من ألوان انتاجها المختلفة ، وهذه الوسيلة هي جودة الاخراج المطبعي بشكل يلفت النظر والاعتماد الى جانب ذلك على كسب القارىء من الناحية المادية اذ أن ثمن هذه المؤلفات المختلفة في السوق أقل بكثير من تكاليف طباعتها الممتازة ، الى جانب ما تدفعه المؤسسة من تكاليف ضخمة لدور النشر وللمشتركين في الترجمة او التأليف ، تلك هي الوسائل الثلاث الاساسية التي تعتمد عليها مؤسسة فرانكلين في القيام بدورها ، وأخطر ما في هذه الوسائل انها هي نفسها غايات ... غايات في ذاتها ، فانشغال دور النشر عن كل ما يتصل بواقع الحياة وضرورات الفكر في مصر ، وانشغال الاساتذة الجامعيين عن دورهم الخطير في الثقافة دورهم الذي يحتاج منهم الى كثير من التضحيات العنيفة لا في رفض المشاركة في مثل هذا العمل وحسب ، بل في مجرد ممارستهم لوظيفتهم في واقعنا الثقافي ، فكم من الجهود تحتاجها الجامعة في وضعها الراهن حتى تؤدي دورها الصحيح الفعال في واقع الحياة والثقافة .. هذا الدور الذي لا تشترك فيه الجامعة على التقريب ، بسبب عوامل كثيرة متآزرة . ومن هذه العوامل انصراف بعض الأساتذة الى بذل جهود خارجية ، لا تشغلهم فقط عن ممارسة وظيفتهم كما ينبغي بل تدفعهم بشكل خطير الى اتخاذ موقف محدد من المشاكل الأليمة التي تعترض الواقع المصري ... انهم يقفون بجانب ثقافات شبيهة بالدخان الذي يثيره الاعداء في وجه المكافحين ليضلوهم عن مصدر الألم ... مصدر الرصاص المنطلق الى الصدور ، مصدر الضيق الذي يخنق وجودهم فيعيشون

في سكر الفزع وقد تبددت طاقاتهم الانسانية بين عمل يومي رتيب ومقاه ومنتديات ودور للسينما لا تفتح للوجدان الانساني منفذ نور واحداً ، أو تعين لحظة على النمو والادراك فيما تعرض من أفلام سطحية تافهة . أعرف أساتذة جامعيين ترجموا في العام الماضي كتابين كبيرين لهذه المؤسسة .. متى يمكن ان يؤدي مثل هذا الاستاذ وظيفته ؟ ان مترجماته قد فرضتها عليه المؤسسة نفسها وهذا يعني انها لم ترتبط بمجاله الفكري الا بشكل اعتباطي - ولا شك ان اغراء ما تدفعه هذه المؤسسة مقابل تلك الجهود انما هو في ذاته امتحان عسير لهؤلاء الذين يدركون خطورة مركزهم الثقافي في مصر لأنه سيدفعهم حتما ، اما الى الارتباط الواعي بمسؤولياتهم والتزاماتهم ازاء هذا الواقع أو الى التخلي تماماً عنه في سبيل هذه المكاسب الوقتية المغرية التي لا يرتبط بها على الاطلاق انسان حر يدرك ما في مثل هذا الارتباط من أخطار على الملايين التي يعيش معها .

والعيوب التي تتصل بمضمون ما تخرجه هذه المؤسسة ، وهي مقصودة هادفة نركزها في النقط الآتية :

١ - الكتب المترجمة لا تمثل حقيقة الثقافة الأمريكية الحية ، فلم تترجم هذه المؤسسة حتى اليوم قصة واحدة لشتاينبك او ريتشارد رايت او هوارد فاست أو كالدويل أودوس باسوس بل اتجهت الى دراسات تتصف بثبات حقائقها وطرائق عرضها مثل كتاب « تطور الفكر السياسي » ومثل هذه الكتب الحيادية التي لا لون لها قريبة جداً من طابع دوائر المعارف العصرية التي

لا تختلف فيها ثقافة أمريكية عن ثقافة انجليزية أو فرنسية . وفي المجال الفني اتجهت المؤسسة الى ترجمة اعمال تتفوق من ناحية « التكنيك » ولا تثير مشكلاتنا الانسانية في صورها الموضوعية المعروفة ، بل تثير قضايا عامة مجردة .. « قضايا انسانية » على حد تعبير توفيق الحكيم في مقدمته للمسرحيات الامريكية التي ترجمتها المؤسسة ، ومثل هذه الاعمال في ذاتها قيمة ومطلوبة ، ولكنها في هذه الصورة لا تقوم الا بدور اثارة الضباب على القضايا الواضحة بتجريدها وتعميمها . ومن المعروف ان التعميمات المجردة من الممكن ان تتغاير بل وتتناقض في مجال التطبيق — اننا نريد لهذه القضايا الانسانية أن تصل الى القارىء المصري من خلال اعمال فنية حرة ، من خلال أعمال كبيرة لكبار كشتاينبك ورايت وكالدويل وهمنجواي وفاست .

٢ — تنزع بعض المؤلفات التي تصدرها المؤسسة الى تشويه بعض القيم النفسية للادب العربي ، والمثال الواضح لهذا النمط هو كتاب محمد عبد الغني حسن عن المهجر ، فقد كتب له عزيز أباظه مقدمة سطحية هاجم فيها الشعر المهجري ، واختار المؤلف نماذج من الشعر استنتج انها تمجد النزعة الدينية والنزعة الروحية ، ويبدو بوضوح ان المفهوم الذي استنتج المؤلف ان الشعر المهجري يدعو اليه في الدين والروح هو المفهوم الذي طالما عانى منه الشرق الازمات التي عملت على تجميده وتخلفه .

٣ — كثيراً ما تنزع هذه المؤلفات الى خلق ارض شعورية وذهنية خصبة من الميل والألفة للاتجاهات الامريكية في مجالات السياسة والاجتماع والفكر .

واعتقادي ان هذه الارض انما هي عملية تمهيد دائبة لاهداف اخرى كان من اللازم ان يلتفت اليها الكتاب المصريون الذين يقدمون هذه الكتب ويشاركون في خلق هذا الشعور بالميل نحو امريكا، ومما يزيد هذه الناحية خطراً ان قراء هذه الكتب غالباً ما يكونون هم شباب الجامعات ، الشباب الذي يمتص كل امكانيات بلاده على تثقيفه وتكمن فيه اتجاهات مستقبلها في شتى الجوانب .

٢ ــ مصر والثقافة الامريكية

لم تكن مؤسسة فرانكلين وحدها لتستطيع أن تقوم بالدور الخطير الذي تقوم به في مصر لو لم تجد قابلية فعلية لمعاونتها على النمو والامتداد، ولقد وجدت هذه القابلية الخصبة عندما اكتشف البعض ان الفكر والثقافة من الممكن ان يتحولا الى « سلع » رائجة تضمن من ورائها الأرباح الكثيرة ، وكانت نشأة هذه الفئة في ظروف ساعدتها على أن تكتشف إمكانية المتاجرة بالفكر والثقافة ، وبعض هذه الظروف كان متمثلا في المراحل التاريخية المختلفة لنمو الفكر والثقافة في مصر ، وبعضها كان متمثلا في طبيعة هؤلاء التجار الأذكياء أنفسهم .

ولنعد قليلا الى مطلع القرن العشرين لنتبين الملامح العامة للظروف الفكرية في ذلك الحين ، فقد كانت الثقافة المصرية التي تقدمها المعاهد والمدارس آنذاك مقصورة على فئتين : الأعيان من

الحكام وغيرهم ثم رجال الدين ، وكانت النسبة العددية لهاتين الفئتين ضئيلة بالقياس الى مجموع الشعب كله ، وبالطبع كانت مصالح هاتين الفئتين متناقضة الى حد كبير مع مصالح المجموع . ومع ذلك فقد كانت المدارس ومعاهد العلم مقصورة عليهما تقريباً سواء في مصر نفسها او في البعثات المصرية الى اوروبا . أما غالبية الشعب فقد كانت تستمد معارفها من شيء واحد هو : التجربة العملية على اختلاف مظاهر هذه التجربة ، بين احتكاك بالمستعمر ، وكفاح دائب ضد الدولة ، وتحايل مستمر على الأرض في الزراعة والحصاد ووسائل تنظيم هذا الحصاد .. تلك هي الصورة العامة للوضع الثقافي في مطالع القرن العشرين .

ولقد بدأت هذه الصورة تتغير في سرعة حين خلقت الازمات المختلفة التي مرت بالشعب ، ومن عرقه وتاريخه في الكفاح طبقات جديدة تماماً في تاريخ مصر خلال هذا القرن كانت نشأتها تمثل عدم الرضاء بالوضع السابق والامل في وضع جديد .. قامت الطبقة الوسطى والطبقة الوسطى الصغيرة وطبقة العمال ، وابتدأ الوعي الثقافي يعم شيئاً فشيئاً في حدود الظروف المختلفة التي عاشتها تلك الطبقات . وتبلور هذا الوعي الجديد في حاجة الشعب الى الصحافة، وحاجته الى المدارس المختلفة والجامعات ، ثم اقباله على هذه المؤسسات كأمل له في الخلاص من أزماته واكتشاف كل ما له من امكانيات .. لقد اصبحت الثقافة عن طريق القراءة مطمحاً غير مقصور على فئتين — ولا اقول طبقتين — هما : رجال الحكم ورجال الدين — ولكن كيف تعيش هذه المطامح العامة وكيف

يستجاب لها وهناك قوى أخرى مسيطرة تريد أن تبقى ، وليس من صالح بقائها أن تنمو هذه المطامح الجديدة ؟.. كان هناك : قوة المستعمر ، وقوة الملك ، وقوة الاقطاعيين ، وكان هناك القوة الدينية التي اصطنعتها القوى الاخرى كستار كثيف لحماية مصالحها المتناقضة مع مصالح المجموع .. ان نمو المستوى الثقافي للشعب يعني القضاء على هذه القوى التي ترتفع في حقوق الشعب ، والذي يبرر لها هذا كله شرط واحد هو : انعدام الوعي الشعبي عن طريق الثقافة بالذات .. غير ان هذا الوعي بدأ ينمو ويكتشف الحقيقة القاتلة : ان مصدر ألمه وعذابه هو هذه القوى المسيطرة بلا حق وبلا جهد يبذل في سبيل تبرير هذه السيطرة تبريراً لا يتناقض مع المنطق الانساني السليم .

في هذه الظروف التي بدأ فيها الوعي عن طريق الثقافة ينتشر بين طبقات الشعب المختلفة ، كانت القوى الاخرى تعمل بدورها للسيطرة على هذا الوعي واثارة الضباب في طريقه ، وتشكيكه في انتصاراته المحققة او القادمة . وكانت هذه القوى في حاجة الى وسائل بشرية يمكن توظيفها في هذه المعركة لتقوم بدور التصفية .. تصفية ما بين تلك القوى الداعية للهزيمة وبين الوعي الشعبي عن طريق الثقافة .. وذلك حتى يطمئن كل الى وضعه « المقدور » . وبين طبقات الشعب التي تكافح من اجل قضية الوعي بالحياة ، كان هناك طبقة سعيدة تستمد صفتها الطبقية من عناصر تاريخية قديمة ، كانت الفلسفة العامة لهذه الطبقة الضئيلة كماً ، الخطيرة بالنسبة لوعيها بمصالحها وتاريخها الطويل ، هي : الكسب الفردي مهما تناقض مع

مصالح الشعب المصري. لقد تعلم ابناء هذه الطبقة على خير ما يمكن ان تقدمه المعاهد العلمية في مصر في الوقت الذي كانت الثقافة فيه غريبة عن الشعب : اما لانه مشغول عنها بمشاكله الكثيفة ، واما لوجود الاسوار الفعلية المقصودة بينه وبين التعليم ، واقد سافر كثير من ابناء هذه الطبقة الى اوروبا وتعـلموا هناك ايضا ، واستطاعت معركة القومية المصرية المغلوبة على أمرها أن تجذب اليها بعض ابناء هذه الطبقة ، واعتمدت حركة النمو التاريخي في مصر الحديثة على بعض الجهود الأساسية المخلصة كان من بينها كفاح هؤلاء الابناء الممتازين الكبار الذين اجتذبتهم المعركة القومية من بين أنياب الفلسفة الطبقية التي ينتسبون اليها تاريخياً ، فعرفت الحياة : مصطفى كامل ، قاسم أمين ، محمد فريد .. ولكن المعركة عجزت في نفس الوقت عن اجتذاب فئات اخرى كثيرة من ابناء هذه الطبقة ، وعجزت ايضاً عن تغيير الفلسفة التي ارتبطوا بها : فلسفة الكسب الفردي مهما تناقضت وسائله مع صالح المجموع .

الى من يلجأ هؤلاء ؟

الى صدور الحكام المعادين للشعب ، هذه الصدور الحانية عليهم ، المستعدة لتحقيق فلسفتهم في واقع الحياة ، لأن تحقيقها هو الثمن الذي يدفعه هؤلاء الحكام من أعداء الشعب حتى يظلوا مسيطرين على خيرات مصر ، يرتعون على مسرح حياتها دون رادع او وازع من ضمير انساني.. وكان المسرح احمر : بلون الدم ، شفافاً كثيفاً غبارياً : بلون العرق ، حزينـاً كنبضات قلب الفلاح المصري المسكين الذي لا يغني الا بكاء ، ولا يبتسم مرة الا لتروي لك

ابتسامته قصة تاريخ شاحب اسود ذليل .

.. الى من يلجأ هؤلاء ايضاً ؟

في اواخر القرن الماضي ومطالع القرن العشرين ، في هذه الفترة التي كان المجتمع المصري فيها يذوب تحت حرارة التجارب المختلفة ليعيد تكوين نفسه من جديد بصورة تتلاءم مع ظروفه الجديدة ... في هذه المرحلة وفدت على مصر طبقة من التجار : لفظتهم مجتمعاتهم لضيقها بفلسفتهم ومطامحهم المغلقة فجاءوا الى مصر ... الى السوق الواسعة التي تتيح لهم فرصاً أكثر للكسب والنجاح ، كانوا تجاراً موهوبين فأخذوا يبحثون في السوق الجديدة عن مادة لتجارتهم فلم يجدوا خيراً من مطامح هذا الشعب وآماله الوليدة . وفتح التجار الموهوبون دوراً للصحافة مستغلين حاجة المجتمع المصري في تلك الفترة «الخام» من تاريخه الى مؤسسات الثقافة على اختلاف انواعها ومن بينها الصحافة . فقد كان ذلك الحين هو بداية الامتداد الشعبي العام الى ميدان الثقافة . لقدبدأت هذه الثقافة تخرج من صومعتها كإرث خاص للأعيان من رجال الدين والمال لتصبح املا جميلا في مستقبل جميل .. لتصبح وسيلة لكافة ابناء الشعب في علاقاتهم الانسانية وحياتهم العملية التي تتطور في سرعة ... بدأ هؤلاء ينشئون الصحف ودور النشر ، ولأن اهداف تلك الصحف ودور النشر كانت تجارية بحتة ، فانها لم تُعْنَ ابداً بأي تناقض بينها وبين مصالح المجموع ما دام هذا نفسه لا يتناقض مع الاهداف التجارية لمشروعاتهم ومؤسساتهم . وحسبنا ان نقول : لقد كان من بين هؤلاء الوافدين مفكرون وفنانون

مدر كون سرعان ما امتصتهم البيئة المصرية فاصبحوا مصريين شرفاء لا يتناقض معنى وجودهم مع معنى وجود المصريين انفسهم ، واصبح هؤلاء بالذات : افرادا مصريين لا مؤسسات في مصر .. حسبنا ان نقول هذا لنؤكد بعد ذلك ان هؤلاء الوافدين الى مصر - باستثنـــاء الافراد القلائل الذين تمثلتهم مصر واستوعبتهم تماماً - كانوا جميعاً عناصر غير صالحة للاشراف على مؤسسات فكرية . فلا الشعب واع تماماً لدوره التاريخي ، ولا الطبقات الواعية القليلة قادرة على النفاذ الى اعماق التجربة الجديدة عليها - تجربة الصحافة ودور النشر في النطاق الشعبي الواسع - لتعرف المصير القريب لهذه التجربة .. ذلك المصير الذي اتخذ لنفسه مكاناً مواجهاً لنمو الشعب وتاريخه وكفاحه وضرورياته المختلفة .. وبعض ابناء هذه الطبقات الواعية نفسها هم من نتحدث عنهم : وعي لمصالح فلسفة الكسب الفردي مهما تناقض مع مصالح المجموع حتى ولو كانت مصالح المجموع نفسها وسيلة لهذا الكسب . انشأ هؤلاء التجار الوافدون الذين ضاق بهم مجتمعهم ولفظهم بسبب من مطامحهم الفردية الواسعة التي لا تحس بأي التزام ازاء الآخرين ما دام هؤلاء الآخرون لا يلزمونهم شيئاً بوسائل مباشرة .. انشأوا مؤسسات فكرية عديدة كانت هي المدرسة التي تعلم فيها ابناء الطبقات التي اعتمدت عليها القوى المعادية لمصر في تدمير روح كل معركة من معاركها الكبيرة .

وبهذه الوسيلة ، وبصراحة اكثر تلزمنا بها ضرورة الموقف الراهن ، خرجت «اخبار اليوم» الى الحياة : تربى اصحابها في احضان طبقات استمتعت بكل الخير المصري في يوم من الايام ،

ثم خرجوا الى الحياة يبحثون عن مجال يطبقون فيه الفلسفة المفهومة التي تأصلت في نفوسهم : الكسب الشخصي دون اي التزام ازاء الآخرين... وبدأوا كما يبدأ كل هادف الى تحقيق تلك الفلسفة : المرحلة الاولى في حياته هي اتقان «التكنيك» فتلك هي وسيلة الخداع التجاري الاولى .. وبعد ذلك بدأوا المرحلة التالية، مرحلة استغلال التفوق في التكنيك استغلالا عملياً تطبيقياً.. فالشعب جائع الى الوعي عن طريق الصحافـــة ، وليس في الامكان ان تقوم الصحافة الحرة المسئولة التي تستجيب لحاجة الشعب دون جهد كبير وكفاح شاق وتنازل اساسي عن الفلسفة المفهومة التي ثبتت جذورها في نفوس ابناء هذه الطبقة التي تريد الكسب الفردي عن اي طريق. فلتقدم للشعب الصحافة المطلوبة كوسيلة من وسائـــل التثقيف والمعرفة لا لتؤدي هذه الرسالة ولكن لتحقيق الهدف الاساسي : الكسب الفردي دون اي التزام ازاء الآخرين .

وكانت هناك المدرسة الكبرى للتكنيك في مصر .

انشأ هذه المدرسة : التجار الوافدون الى مصر بعد ان عجزوا عن تحمل تبعاتهم كمواطنين فلفظتهم مجتمعاتهم وضاقت بهم .

كانت هذه المدرسة الكبرى هي : «دار الهلال» وتعلم اصحاب «اخبار اليوم» المبادىء الراسخة الاولى هناك : في ارض غريبة عن مصر قائمة في قلب مصر . وبـــدأت « اخبار اليوم » تظهر كشخصية مستقلة منفصلة عن امها الكبرى عندما وجـد اصحابها ان المجتمع لم يعد يحتمل كثيراً اوجه الغرباء وان طبقاته المختلفة تنمو... واخطر من هذا كله ، ان المسيطرين على الخير المصري

كانوا في خوف وقلق على سلطانهم ازاء امتداد النمو والوعي. انهم في حاجة الى من يثير الضباب في وجه المعركة الشعبية من خلال آمالها ومطامحها.. اجل: من خلال نفس الآمال والمطامح.

وبدأت «اخبار اليوم» في تأدية رسالتها بعد ان تهيأت تماماً من ناحية التكنيك.. احتضنها القصر الملكي من اجل تحطيم الوفد وهو اكبر جبهة شعبيه كانت تهدد الملك بالخطر في ذلك الحين، ومضت «اخبار اليوم» تجند كل ما وصلت اليه من تفوق تكنيكي للقضاء على السلطة الشعبية للوفد، واشباع مطامع الشعب في الثقافة بطريقة متميعة ليس من السهل ان يكتشفها الشعب ببساطة لانها ذات وجه مصري ولانها ذات رأس مال يمكنها من: التفوق في التكنيك واستغلال حاجة عدد من الكتاب المصريين ليتفرغوا بجهودهم لها وليكونوا - بوعي او بغير وعي - ذلك الستار الكثيف الذي يحمي الرسالة الحقيقية لهذه المؤسسة، تلك الرسالة تتلخص في تحقيق فلسفة اصحابها في الحياة، وتحقيق آمال الملك ومن ورائه اعداء كثيرون للشعب في هدم اكبر قوة شعبية آنذاك هي: الوفد الذي لم يكن خطيراً في ذاته بقدر ما كان الخطر فيما يتولد عنه من قوى هائلة كلما نما وعي الشعب.

ولما كانت فلسفة أصحاب الدار لا تتناقض مع آمال الملك ومن ورائه القوى الأخرى المعادية للشعب فقد ولدت المؤسسة في سهولة ويسر .. فالشعب مرهق وبلا سلاح والأعداء اقوياء ذوو أسلحة.

ويتطور الشعب، ويتطور الاستعمار ايضاً، والمرحلة الأخيرة

— لا النهــائية — من تطور الشعب هي ازدياد الشعور بضرورة الوعي عن طريق الثقافة والمرحلة الأخيرة — لا النهائية ايضاً — من تطور الاستعمار هي المحاولة الضارية للسيطرة على منابــع الثقافة ومصادرها المختلفة ، وشتى القوى التي يمكن ان تكون هي المنافذ التي تبعث بالشمس والهواء الطلق لهذا الوعي الجديد ، تارة باستغلال الضروره التي يعيش فيها بعض الكتاب والمفكرين في مصر ، وتارة اخرى بالسيطرة على دور النشر واغراق السوق الفكرية بكتب كثيرة لا تمس واقعنــا الحقيقي الذي يغلي بالألم والحاجة : اجل بالحاجة .. اولا للتخلص من شتى صور الاستعمار وثانياً للحياة في رخـاء وأمن .. وتارة ثالثة يعتمد هذا الاستعمار على التسلل الى المدارس ونظم التربية ومعاهدها ، والى الجامعات ايضاً . وحسبنا ان نشير اليوم الى سلسلة « علم النفس للآباء والمدرســين » التي تصدرها مؤسسة فرانكلين بنسبة كتاب كل اسبوع ، ويشرف على اصدارها وترجمتها الدكتور عبد العزيز القوصي عميد معهـد التربية : اكبر معهد مصري لتخريج المدرسين — وحسبنا ان نشير ايضاً الى ان نظم التربية الامريكية هي النظم السائدة في مدارسنا ومعاهدنا المختلفة ، وحسبنا ان نشير مرة اخرى الى ان سيطرة مؤسسة فرانكلين قد تعدت حدود السيطرة العامة على دور النشر الى السيطرة الخاصة على تفاصيل هذه الدور المختلفة ، فقد صدر في الشهر الماضي اول كتاب مترجم في سلسلة «اقرأ» التي ظلت اكثر من عشر سنوات تصدر كتباً عربية مؤلفة .. وقد صدر هــذا الكتاب المترجم تحت اشراف مؤسسة فرانكلين .

ان موضوعنا لا زال يحتاج الى رابط : والذي دعانا الى كتابته هو : ان « دار اخبار اليوم » قد اتفقت في شهر نوفمبر سنة ١٩٥٥ مع المؤسسات الامريكية المختلفة على اصدار مجلات امريكية منتظمة في ترجمات عربية ، وأول هذه المجلات مجلة « المختار » الامريكية التي كانت تصدر من قبل تحت اشراف فؤاد صروف. وسوف تصدر من جديد عن دار « اخبار اليوم » تحت اشراف كاتب مصري عاش على هامش المعارك الوطنية المختلفة هو : محمد زكي عبد القادر. الكاتب الكبير الذي لم يلتزم في يوم من الايام أي التزام جدي في حركتنا التاريخية المعاصرة ، وسوف تصدر المختار كموجة جديدة من امواج الطوفان الغامر الذي يجتاح الثقافة العصرية اليوم ، تصدر هذه المجلة عن دار اخبار اليوم لتكتب للمصريين المكافحين المرهقين طرائف عن الذرة، وحكايات بوليسية عن الكرملين ، ومقالات مفصلة عن الانسان الآلي ... كل ذلك في الوقت الذي يعرف العالم فيه كثيراً من الحقائق الموضوعية عن طبيعة العلاقات الدولية وضروبها وقيمتها واسمها المختلفة ، ويحتاج فيه انسان القرن العشرين عموماً وانسان مصر والشرق على وجه الخصوص الى كفاح كبير لتأكيد قيمة الانسان غير الآلي والدفاع عنه ضد ألوان الاستغلال المختلفة وتوسيع نطاق امكانياته حتى يستطيع البقاء ، ويستطيع ان ينزع ذلك «القرف» الاسود الذي يملأ نفسه ويضعه على الدوام في معركة أليمة مع العدم ، اما في مستشفيات السل او على أرصفة الشوارع ، او في داخل الوجدان المهزوم انسانياً في علاقاته المختلفة.

وفي لحظات الارهاق والحذر يفسح المصري صـــدره « للمختار » وغيره مما يسليه ، ويعزيه عن مأساته : فقـدان حريته ازاء نفسه كانسان يحب ويبتسم ويعرف ، كما يقدم له الطرائف المختلفة التي لا ينقصها هذه المرة ان تصدر عن دار ذات وجـه مصري ، وتحت اشراف كاتب تبدو عليه ملامح الجد والرصانة ، ولا ينقصها ايضاً ان تكون مزيجاً من الكتابات الامريكية والاقلام المصرية ... تلك الصفة التي كانت تنقص «المختار» حينما كانت تصدر من قبل .

ان «المختار» ليست آخر موجة في هذا الطوفان ، بل ان هناك موجات اخرى سوف تتبعها، ففي الغد سوف تصدر مجلة «لايف» الامريكية في طبعة عربية عن دار اخبار اليوم : نفس الدار التي نشأت في احضان الملك ، وتعلمت التكنيك على يد تجار غـــير مواطنين ، وواجهت الشعب بأقوى الضربات المعتدية في معاركه العنيفة ، وبنت عشرة ادوار كبيرة في اقل من عام واحد لتتسع للمشروعات الامريكية المختلفة .

ان على عاتق المثقفين المصريين مسئولية كبيرة ، عليهم ان يقاوموا هذا الطوفان .. ولو بالدموع .

قضية السودان والفكر السياسي

كثيراً ما تدور المعارك الكبيرة الحاسمة (١) في حياة الشعوب دون ان يكون المظهر الخارجي لها هو المظهر الوحيد. فمن الممكن ان تدخل عناصر اخرى في جوهر تكوين هذه المعارك المختلفة، وتظل هذه العناصر مختفية بالرغم من انها تعمل في عمق على توجيه المعركة التي تمثل بالنسبة للشعب انتفاضة جديدة نحو مرحلة افضل من الحياة، وكلما كانت الشعوب في مراحل حضارية مختلفة، كلما ازداد هذا الازدواج في تكوين تلك المعارك الشعبية خفاء. فالثورة التي يبدو ان حافزها ديني او اخلاقي او بطولي عاطفي يمكن ان تنكشف بعد دراسة متأنية عن حركة ذات فلسفة في

(١) كتب هذا المقال بمناسبة الاستفتاء الذي اجري في السودان في اواخر ديسمبر سنة ١٩٥٥ والذي انتهى باعلان استقلال السودان في يناير سنة ١٩٥٦

النظام الانساني والاقتصادي للمجتمع. فمثلا لم تكن ثورة المصريين في سنة ۱۹۱۹ ذات هدف انفعالي محض هو طرد المستعمر الانجليزي من مصر بل كانت في رفضها للاستعمار تعبيراً مجيداً عن حاجة الشعب الى نظام اجتماعي جديد تتوفر فيه شروط اكرم للحياة الانسانية بالنسبة للفرد في مصر. كانت طموحاً الى المعرفة، وطموحاً الى التحرر، وحلماً بمستقبل تتحقق فيه العدالة وينسحق الظلم الاجتماعي الصارخ الذي كان قائماً آنذاك نتيجة للانفصال الكامل بين الدولة والامة، بين الحكومة والمحكومين. ولو وجدت هذه الثورة الكبيرة من يبلور لها اهدافها بشكل واضح عميق لاستطاعت الاجيال الجديدة، اجيال ما بعد الثورة، ان تجد اصولا لفلسفة مجتمعها واهدافه وان تجد هذه الاصول واضحة عميقة قابلة للتطور تبعاً لحاجة الاحداث الجديدة والوقائع الراهنة. كانت ثورة ۱۹۱۹ في حاجة الى قيادة فكرية لا شعبية وحسب، ولو وجدت هذه القيادة الفكرية لظلت اهداف الثورة تدق بعنف اسوار الاعداء وتعمل في قوة على ابادة قيودهم وترسم الضوابط الواضحة لكل حركة تحدث في المجتمع بعد ذلك.

وكان لهذا التخلف الفكري اثره العنيف فى تاريخ تلك الثورة الحاسمة فتبدد الشعب الذي اجتمع في قوة وعنف جبار سنة ۱۹۱۹. وقد وقف آنذاك يواجه اعداءه بعد ان كشفت التجربة عن وجوههم: المستعمر، الجالس على العرش، حزب الامة وانصاره من الاقطاعيين المستنيرين واعيان البلاد. وكان لهذا العداء بين الشعب وتلك القوى المناهضة له موضوعيته ذات الاصول والعناصر.

وفي الوقت الذي وجدت القوى المعادية كلها من يبلور لها فلسفتها ويحدد - في وعي كامل - اهدافها وطريقها في ارض التاريخ المصري الحديث ، لم تجد الحركة الشعبية من يتبناها فكرياً بمثل الدقة التي استطاعت ان تحصل عليها قوى الاستعمار والسراي وطبقات الاقطاعيين والاعيان ، وظلت هذه الحقيقة قائمة طوال فترة طويلة من كفاح المصريين وصراعهم في سبيل تحقيق امنيتهم في خلق مجتمع جديد سليم.. ظلت القوى الشعبية مندفعة في انفعال ولا تجد من يتبنون اهدافها ويعملون على بلورتها في صورة فكرية حية توضح الخطوط المتشابكة في طريق الكفاح الصادق ، بينما ظلت القوى المعادية للشعب على معرفة واضحة بأهدافها ومصالحها، ولا شك ان المجتمع المصري قد خسر الكثير في تطوره الحديث نتيجة لهذا الوضع الفكري الذي كانت السياسة فيه خطوات مرتجلة غير منظمة ليس لها فلسفة واضحة ولا اهداف ومناهج متبلورة راسخة .

ونكتفي بهذه الاشارة السريعة الى ثورة ١٩١٩ وما تلاها كمثال على طبيعة الموقف الشعبي الذي تنقصه قيادة فكرية تحميه من غبار المعارك المختلفة التي تدفع اليها مظاهر الصراع السياسي وخصوصاً في حياة الشعوب التي وقعت فريسة الاعداء من الخارج والداخل على السواء . فبينما كانت مصر - مثلا - تعاني وطأة الاحتلال اذا بها تواجه بأحزاب سياسية تقطع الطريق - بمعاونة السراي والاستعمار - على الشعب كلما اتجه الى مرحلة جديدة من مراحل تطوره ، ذلك لان هذا التطور الجديد يعني القضاء على

مصالح بعض الطبقات المسيطرة التي لا تستطيع ان تحمي هـذه المصالح بمبررات انسانية معقولة مما يدفعها الى اثارة الضباب والعبث بأهداف الشعب وامانيه حتى تظل تلك الحقوق المغتصبة في ايدي المغتصبين السعداء الذين كانوا يفكرون في تأمل هادىء وينامون في امن جميل ، ويحلمون على الدوام بسيادتهم على المجتمع ، وكأن الشقاء الذي يعانيه الكثير من ابنائه قدر حتمي ومصير نهائي لا ينبغي ان يخرجوا منها على الاطلاق .

ان الدور الذي ينبغي أن يقوم به الفكر ، دور المثقفين المخلصين ، هو في الحقيقة دور خطير في مثل هذه اللحظات الحساسة من تاريخ الشعوب ، فلا وسيلة للسيطرة على المعارك الكبرى التي تخوضها تلك الشعوب الا بفهم مصدر هذه المعارك واهدافها فهما موضوعياً كاملا ، ثم العمل على ابراز الغايات الحقيقية لمثل هـذه المعارك والمطالبة في قوة بعزل الاهداف المصنوعة المزيفة الغائمة . ان الشعوب المناضلة التي تدخل معارك حية كبرى لا يمكن ان تهدف من وراء هذه المعارك الى غايات عاطفية غير واضحة ، فهي بتضحياتها الكثيرة انما تهدف الى تحقيق غايات موضوعية مرتبطة بمصائرها الكبرى في الحياة .. مصيرها الاقتصادي ، مصيرها السياسي ، مصيرها الفكري ، مصيرها الاجتماعي .. ومن الجائز ان تكون غالبية عظمى من ابناء هذه الشعوب ، وهي مثقلة بالجهل والاعياء ، غير واعية تماماً بما تهدف اليه ، وهنا يكون دور الفكر ايضاً هو ان يوضح العناصر المختلفة لاهداف هذه الغالبية المجتهدة من وراء معاركها الدامية . وعلى المثقفين الذين يقومون

باداء هذا الدور ان يعملوا في تآزر مخلص وجهد صادق والتزام واع على توضيح هذه الاهداف الغائمة . وليكن ذلك عن كل طريق يمكن الوصول من خلاله الى عقول أبناء الشعب وقلوبهم واي اهمال في اداء هذا الدور الفكري في المعارك التاريخية للشعوب هو مساعدة مباشرة على تبديد قوى تلك الشعوب واتاحة الفرصة لتدخل عناصر خارجية في تحديد مصيرها واثارة الضباب في وجه اهدافها الحقيقية الصريحة . وغالباً ما تكون هذه العناصر الخارجية ذات مصالح متناقضة مع مصالح الشعوب نفسها ، فلن يكون تدخلها ابداً في صالح تلك الشعوب واهدافها الحقيقية .

وقضية السودان التي تشغل الشعوب العربية عموماً وشعب وادي النيل على وجه الخصوص والتي تبرز اليوم على مسرح الفكر والحياة في مرحلة جديدة من مراحل تاريخها .. هذه القضية قد تخلى المفكرون في الماضي عن معالجتها بصورة موضوعية مخلصة .. فمنذ عشر سنوات مثلا كان الارتباط بين مصر والسودان قضية بديهية لا تحتاج في معالجتها كما كان يبدو ظاهرياً آنذاك – إلى فكر موضوعي دقيق .. وكان كفاح رجال السياسة في مصر والسودان مرتبطا بقوة على أساس من هذه البديهية الاولى غير المدروسة والتي يسلم بها المصريون جميعاً وغير ذوي المصالح في السودان .. ولم يكن السؤال عن الاساس الموضوعي لهذه القضية من القوة بحيث يدفع احداً الى معالجتها بهدف الكشف عن طبيعة العلاقة بين مصر والسودان وتاريخ هذه العلاقة والجوهر الموضوعي للكفاح المشترك بين الشعبين : إذ انه كان كفاحاً ضد عدو مشترك ومن اجل مصالح مشتركة

ووظيفة انسانية مشتركة .

لو عدنا الى عشر سنوات لوجدنا الوضع الفكري لقضية السودان قائماً على هذه الصورة . وقد امتد هذا الوضع الى ما قبل تلك السنوات العشر بكثير وبقي قائماً حتى كادت هذه السنوات نفسها تنقضي .. ثم ، فجأة ، رأينا المصير التاريخي للقضية يأخذ اتجاهاً لم يتوقعه احد .. مما يعرف الجميع .

ان الذي يعنينا الآن هو الاشارة الى الاثر السيء الذي ترتب على التخلف الفكري في معالجة هذه القضية الحاسمة الكبيرة . ان النزعة السياسية التي اعتمدنا عليها كثيراً والتي تتميز بالسلبية والارتجال وعدم الوضوح الفكري هي ما ينبغي علينا ان نواجهه. انها مرحلة متخلفة ضارة في الفكر السياسي تعتمد على النظر الى المجتمع الإنساني باعتباره قطيعاً يسيطر عليه جماعة قليلة تتصرف في شئونه الانسانية كما ترى ، بلا تفكير فيما تعرض له من قضايا او ارتباط بتحليل دقيق لمضمونات الوقائع والاماني السياسية في جوانبها الانسانية والاقتصادية والفكرية . ان بين مصر والسودان علاقات نفسية ينبغي ان نعرف حدودها ، وبينهما علاقات اقتصادية ينبغي ان نعرف وقائعها بوضوح ، وهناك علاقات ثقافية تربط بين مفاهيم الحياة في شتى مجالاتها عند المصري والسوداني على السواء : كل هذه جوانب يجب ان تعالج بعمق حتى تضيء الطريق امام الفرد فيعرف انه لا يسعى الى الدفاع عن اهداف غامضة عارضة ، بل الى تحقيق هدف واضح محدد العناصر .. الى تحقيق ضرورة موضوعية صريحة . لا بد من التخلي عن الفهم القديم للسياسة ، ذلك

الفهم الذي فرش بالانفعال والضباب ارض الميلاد بالنسبة لكثير من قضايانا الحاسمة ، ومهد الطريق لكي يستفيد - على حساب الشعب - من يدركون تماماً معنى السياسة التي تقوم على أسس علمية دقيقة ، ويعلمون تماماً حقيقة مصالحهم ويلائمون بين مناهجهم ونظرياتهم السياسية وبين تلك المصالح .

ان الدراسات الجامعية لاجدوى منها ما دامت تفاصيل مجردة بعيدة عن دراسة مشكلات اخرى كعلاقة تلك التفاصيل بواقع الحياة : كيف نخرج من القضايا الجغرافية بحقائق انسانية ، كيف نتبين من الصداقة والتشابه بين ذرات التراب في أرض وارض . ان هناك ارتباطاً بين انساني هذه وتلك ، وان الحقيقة الثانية تدخل في مجال العلم بنفس القدر الذي تدخل به الحقيقة الاولى . ولقد صدر في مصر من هذه الدراسات الجامعية العقيمة عدد ليس بالقليل نذكر منه كتاب « مصر والسيادة على السودان » للدكتور محمد فؤاد شكري والذي لم يتعرض فيه الا لبعض الحقائق التاريخية الخاصة بالعلاقة بين مصر والسودان في فترة سابقة بكثير جداً على الوضع الراهن لقضية العلاقة بين مصر والسودان .

وهناك كتاب آخر نحب ان نعرض له بكلمة لاهمية الوضع التاريخي لمؤلفه وهو كتاب لم يخرج من الجامعة .

لقد سافر الدكتور محمد حسين هيكل الى السودان في فترة من فترات حياته السياسية وعاد ليقدم الينا كتاباً تحت عنوان «عشرة ايام في السودان» يتحدث فيه عن رحلته ومشاهداته المختلفة ، والدكتور هيكل كما هو معروف كان رئيساً لمجلس

الشيوخ : احد المجلسين الكبيرين للبرلمان ، وكان رئيساً لاحد الاحزاب السياسية التي اشتركت في حكم البلاد ، وفي عهد رئاسته للحزب ما لا يقل عن خمس سنوات ، واشترك فيه من قبل طيلة سنوات عديدة وفي مراحل حاسمة ايام ان كان يرأس هذا الحزب سياسي ذو تاريخ اسود هو : محمد محمود .. ومع هذا الوضع السياسي الذي ارتبط مباشرة بالاحداث المصرية الهامة لم يفكر الدكتور هيكل في دراسة قضية السودان دراسة سياسية مدركة تهدف الى ابراز مشكلة العلاقة بين مصر والسودان مؤكدة بوقائع جديدة استمدها من تجربته الخاصة عند زيارته للسودان . ولقد كان هذا الكتاب مثالا واضحاً على طبيعة الوضع الفكري للمواقف السياسية في مصر ، بالاضافة الى انه يكاد يكون مقصوداً بالنسبة للدكتور هيكل لانه كان يرأس حزباً لا تتلاءم مصالحه مع مصالح الطبقات الغالبة من الشعبين السوداني والمصري. انه حزب الارستقراط والاسر الكبيرة في مصر .

لا بد من تغيير هذا المنهج الكلاسيكي في معالجة قضايانا السياسية ، وفي ادراك مفهوم السياسة . . ونسميه بالمنهج الكلاسيكي تمييزاً له عن المنهج الجديد الذي يغلي واقعنا حاجة اليه ، وكذلك نطلق عليه هذا الاسم لانه ظل مسيطراً على مسرح الفكر السياسي في مصر فترة طويلة حاسمة ونريد ان نعزله كمنهج له خصائصه حتى يكف عن تدخله وتأثيره المسيء في حياتنا وتاريخنا. وليست قضية السودان التي تواجهنا اليوم بعنف الا مثالا واحداً . . . انه بالرغم من وضوحه وخطره ليس المثال الوحيد الذي خضع لذلك المنهج

السطحي المقصود احياناً في التفكير السياسي .. ان الخطر السياسي الذي ينبغي ان نخشاه من المعركة القائمة في السودان ليس هو ما سوف تنتهي اليه من نتائج ، بل هو عدم ادراكنا لطبيعة المعركة وموضوعها . انه تساهلنا في ادراك حدود واقعنا الراهن بما فيه من قوانين موضوعية عميقة تسيطر على احداثه الخارجيه المضطربة ، وواقعنا الذي ننشده بما يضعه من مقاييس وحوافز لخطواتنا في الحاضر نحو ابداع مستقبل انساني سليم .. ان دور الفكر الملتزم الامين ليتضح تماماً من خلال هذه التجربة الجديدة ، وهو دور مسئول يعيش في الواقع ويرصد العلاقات القائمة بين ظواهره والقوانين المسيطرة على احداثه ثم يتدخل بكلمة في تنظيم تلك العلاقات والقوانين تنظيما انسانياً عادلا ، ويعيش مسئوليته الكبيرة اذ ينادي في قوة بافساح الطريق لهذه الكلمة او مناقشتها للاتفاق على وضع واضح لا اعتباطية فيه .

ان الفكر يتحمل عبئاً كبيراً في فهم واقعه وتغييره وقيادته الى مصير سليم ، وليس دوره ابداً هو دور تسجيل احداث رحلة جميلة يقوم بها رئيس حزب سياسي مسئول ورئيس مجلس نيابي كبير .. رحلة يتفرج فيها الرجل المسئول على الطبيعة والناس والاشياء ، ويعود ليحكي قصة طريفة ليتسلى بها القراء : هؤلاء الذين يعيشون في مجتمع له مشاكله المعقدة ، مجتمع كان هذا الكاتب السياسي احد المسئولين فيه عن نظام الدولة والنيابة عن الشعب ..

ان دور الفكر هو ان يحمل التبعات الكبرى في حياة الانسان من اجل تنظيم خطوط واقعه المتشابكة حتى يتضح امامه طريق

حياته .

ان الفكر هو اشرف ما في الانسان وليس من الطبيعي ان يتخلى عن الانسان اشرف ما فيه .

لقد كانت الخسارة التاريخية الكبرى التي وقعت لأبناء ما بعد ثورة ١٩١٩ هي ان هذه الثورة لم تبلور أهدافها فكرياً كما تبلورت مفهومات اعداء الشعب عن الحياة والتاريخ . وستكون خسائرنا الكبيرة في كل معاركنا هي ان نندفع بانفعال غامض في طريق له اصوله الواضحة وعناصره الفكرية التي يمكن ان تعمق الانفعال وتحميه . ولن تكون نتائج الاندفاع غير هذه اللامتوقعات الأليمة العنيفة التي تفسد الاهداف الحقيقية للشعوب الطامحة الى الحيـاة .. فليتحمل أبنـاء الطليعة المخلصون في مجتمعاتنا ما عليهم من تبعات والتزامات ، وليدرسوا مع تجاربهم ومن هذه التجـارب كل ما لمجتمعاتهم من اهداف حقيقية ، وعليهم ان يقدروا في ادراك ويقظة أن للمعرفة مسؤولياتها الكبيره التي تسحق في طريقها كل هدف صغير للفكر عندما يخرج الى المجتمع بهدف التـأثير فيه وتغييره وحمايته من الاضطراب والتأزم .. ان مجتمعنا الراهن في حاجة الى ان تتغير شتى مصائره ، ولن تتم المشاركة الفكرية في هذا التغيير الا بخطوات أمينة مخلصة اولها : ان نغير من مفهوماتنـا الفكرية الأساسية ثم من ادراكنا لعلاقة الفكر بالحياة .. فلا بد – على سبيل المثال الذي يتلاءم مع موضوعنا – من تغيير مفهوم السياسة فان السياسـة علم يتميز بالحيوية والحضور واليقظة ويعمل على تنظيم العلاقات الداخلية للمجتمع وعلاقات المجتمع الواحد بغيره

من المجتمعات ، ومثل هذه الوظيفة الخطيرة للسياسة لا بد ان تقترن – كما هو بديهي – بالفكر المستنير المسئول الذي يؤدي دوره في الايضاح والتعميق . أما عن علاقة الفكر بالحياة فلا بد ان ندرك انه ليس ثمة فكر لا ضرورة له ولا فائـدة منه . وان الضرورة والفائدة لايتحددان بمقياس المصالح الغريزية للفرد بل بمقياس المصالح العميقة للحياة نفسها .

إن الفن دعوة جميلة الى عالم جميل ، والفكر دعوة منظمة الى عالم منظم ، ولم يكن الفن ، او الفكر يوماً من المتع الفردية التي تجند الواقع الخارجي لها وتتناقض مع مصالح هذا الواقع وحوافز تطوره ونموه .

والمتعة الحقيقية في الفن والفكر لا يمكن ان تتناقض مع حركة الحياة المنتظمة المتناسقة العادلة ، تلك الحياة التي يخلقها الانسـان بارادته وفهمه ويملأها بأفراحه وأشواقه وتضحياته .. فعلى أجيالنا الجديدة الطالعة ان تتحمل عبء تعميق العلاقة بين الفكر والحياة حتى يتحقق لمجتمعاتنا ما تطمح اليه من سلامة في تكوينها ، وحتى يتجنب الوقوع في تجارب أليمة تعطل حركة الحياة ، بل وحتى تتاح فرصة الحياة لكل فرد فتكون حقاً من حقوقه لا مصادفة ينتزعها بالتحايل والانحراف .

هل من رواية جديدة ؟

خلال عام ١٩٥٥ مرت الحركة الثقافيـــة في مصر بظروف واحداث خاصة ، ولا يمكن في مجال الرصد العام للحركة الفكرية ان نقسم مراحل هذه الحركة تقسيما زمنياً بحيث يصبح العام المادي متناسباً تماماً مع العام الفكري ؛ فالواقع ان الحركة الفكرية تيار متصل : كل مرحلة منه هي موجة من الموجات لا تنفصل عـــن الموجات السابقة ولا الموجات التالية . . والسؤال الذي نسأله اليوم انما يهدف الى تعرف خصائص الموجـة الفكرية التي استغرقها عام ١٩٥٥ : ماذا يمكن ان تسلم اليه هذه الموجة. بالنسبة للعام الوليد عام ١٩٥٦ ؟ ونحن حين نواجه هذا السؤال لا نهدف بالطبع الى التماس الاجابة عنه في الرصد الكمي للانتـاج الفكري في مصر ، ولا نهـدف الى التماس هذه الاجابة في الجهود الفردية للكتـاب

والادباء ما لم ترتبط هذه الجهود بدلالة عامة في العمليات الفكرية الرئيسية . اننا نحاول ان نتبين اتجاه الحركة الفكرية وسط العوامل المساعدة والعوائق.. نحاول ان نتبين شخصية الرواية الجديدة على مسرح الفكر والثقافة في معركة الصراع بين تزييف الفكر وبين روح الاصالة والصدق التي تحاول ان تؤدي دورها المنشود في واقع الحياة على صورة امينة .

وفي محاولتنا عرض هذه الرواية الجديدة سوف نعرض لبعض الظواهر الاساسية التي تتحكم في شخصية المسرح الفكري في مصر . فمن المهم ان نذكر الآن ظاهرة الانفصال الثقافي بين الريف والمدن الصغرى من جانب وبين القاهرة كعاصمة للنشاط الفكري العام من جانب آخر . ومصدر هذا الانفصال - بالاضافة الى عناصره التقليدية كانتشار الامية - هو ازدواج الواقع الفكري في العاصمة . فمراكز الحركة الثقافية التي تربط بين العاصمة وبين الريف والمدن الصغرى هي : الاذاعة والصحافة ودور النشر الكبرى والجامعة . والوضع الحقيقي لهذه المؤسسات كلها انها لا تمثل غير الاتجاه الفكري المسالم الذي لا يوجد بينه وبين واقع الحياة اي لون من الوان الخلاف او التنافر . والاتجاه الفكري الذي يعنينا في الحقيقة والذي نطلق عليه دون غيره : الاتجاه الثقافي في مصر.. هذا الاتجاه هو ذلك الذي يلتزم مفهوماً مدركاً للمسؤولية ، فيعكس واقع الحياة بقصد اخضاعه للدراسة الواضحة على صورة يستطيع ان يتحول فيها الى واقع مرن قادر على التطور والتغير. وحسبنا ان نذكر مثالا يوضح الفرق بين الاتجاهين ، وقد قصدنا

الى اختيار هذا المثال بالذات وقصدنا الى الاطالة في تحليله لاعتقادنا انه يحمل بوضوح خصائص الاتجاه الثقافي المرفوض، ويوحي - في وضوح ايضاً - بخصائص الاتجاه الاساسي الفعال في الثقافة والفكر. ففي أواخر سنة ١٩٥٥ عرض بعض كتاب الصحافة المصرية لمشكلة الموسيقى وتخلفها في مصر، وقد بـدأ الاستاذ محمد محبوب باثارة هذه المشكلة على صفحات جريدة «الجمهورية» وامتدت المشكلة بعد ذلك الى اقلام اخرى اخذت تعالجها وتحدد ظواهرها ووسائل حلها.. فما الذي حدث ؟.. اخذ الكتاب يعالجون المشكلة من زاوية معكوسة : بـدأوا بأن الموسيقى متخلفـة، ثم التمسوا «اسباب»هذا التخلف في«الموسيقيين» بالاضافة الى ما يرتبط بالموسيقى من معاهد وغير ذلك، ثم اخذوا يقترحون وسائل العلاج ومن أمثلة هذه الوسائل: انشاء معاهد جديدة واستقدام خبراء اجانب.

مثل هذا الاتجـاه في فهم مشكلة الموسيقى هو نمـوذج واضح لاتجاه عريض مماثل في فهم المشكلات الأخرى ومعالجتها .. وهذا الاتجاه الفكري يختلف تماماً عن اتجاه آخر يبدأ في عرض المشكلة وعلاجها بداية منطقية : فاذا كانت الموسيقى المصرية متخلفة فان علينا أن نسأل انفسنا عن علاقة الموسيقى بالشعب المصري نفسه . فواقع الامر اننا سوف نجد ان الشعب ، في طبقاته الرئيسية التي يتكون منها وهي على التحديد : الفلاحون فالعمال والموظفون الصغار .. سوف نجد أن هذا الشعب يعيش في ظروف يمكن ان نصفها بأنها ظروف « غير موسيقية » . فما من فرد من أبناء هذه الطبقات يملك الوقت والأمن ليعيش قضية مشاعره وانفعالاته في

مستوى الموسيقى السمفونية مثلا . انه يعمل في ظل ظروف قاسية للغاية : فمفهوماته عن الحياة لم يتح لها فرصة التطور والنمو ، فهي حبيسة المدركات الدينية الضيقة او العلاقات الاجتماعية القائمة التي تمليها الظروف العملية السوداء حيث تعيش هذه الطبقات . لا يمكن لانسان يعيش في هذا الواقع أن يسمع العمل السمفوني ويستجيب له ويدرك ما فيه من ابعاد إنسانية . واذا كان الفن بوجه عام ضرورة في حياة الانسان ، فالفن الذي يمكن ان يروج بين أبناء هذه الطبقات هو ذلك الذي يستجيب للوجود التلقائي الأول : الغريزة .. ولنضرب مثالين على هذا اللون الاخير من الفن مهدت له ظروف معينة شروط الرواج والانتشار : ففي الموسيقى كانت الحان شكوكو وأغنياته شائعة بين صفوف العمال الى حد بعيد حتى فترة قريبة .. فماذا كان شكوكو يمتاز به حتى استجاب له ابناء هذه الطبقة واخذوا يرددون اغانيه وألحانه ؟. كان شكوكو يمتاز بميزتين رئيسيتين : أولاهما ما يبدو في الحانه مما يمكن ان نسميه بالطابع الجماعي : فكل مقطع منها لا يخلو من امكانية — بل حتمية — ترديده الجماعي : يغني فرد فترد عليه الجماعة .. وطابع الجماعة في حياة العمال طابع واضح حتمي ، فالعمل نفسه جماعي ، والخروج من العمل والدخول اليه شكلان من اشكال التجمع الحتمي ، والفن هو احد مظاهر النشاط الانساني الذي يمكن ان يتحول به التجمع الحتمي من صورته الآلية القاسية الى صورة انسانية تخلق الحوافز وتبعث بالأمل والعزاء ، انه الشيء الذي يحيل المشاركة في مصير أليم يومي متكرر الى قضية تحتمل ..

ولكن تجمع العمال المصريين في الايام التي ظهر فيها شكوكو كان خاضعاً لظروف عديدة ، منها تأخر المستوى الاجتماعي والانساني للعامل ، وارتكاز الصناعة في مناطق قليلة تستدعي وصول العمال اليها بعد جهد طويل ، اذ انهم في الغالب من منـــاطق بعيدة عن نقطة الارتكاز الصناعية .. ومن هنا كان تجمع العمال ، الى جانب طابع السرعة الكيفية فيه ، منتسباً الى وسط مليء بعواصف من الضغط لا تتيح للنفس أن تنتبه الى اعماق بعيدة في داخلها .. ومن هنا اصبح من الضروري أن يكون هذا الفن المنتشر بينهم سطحياً سريعاً متقطعاً يعتمد على خصائص خارجية كالصوت الفـارغ من المعنى والذي يدل على الفرح الأمي كتعبير « هاي » المشهور عن شكوكو .. وكذلك فهو فن يعتمد على الحركة الخارجية ايضاً كأن يكون قريباً من حركة الرقص السطحية للغاية ، وتلك هي الميزة الثانية لفن شكوكو : السطحية والسرعة ، وهي بالاضافة الى الميزة السابقة ميزة الطابع الجماعي ، قد مكنتا لهذا اللون من الفن أن ينتشر وسط طبقة العمال بالذات في فـــترة توفرت فيها شروط معينـــة في تاريخهم ، ولا زالت آثار هذه الفترة باقية حتى اليوم ، ولكنها أخـذت تتلاشي ، وذلك لظهور بعض القوانـين الجديدة التي اخذت تقلل من قلق العامل واحساسه بالفزع حيث كان مصيره يتوقف تماماً على عامل المصادفة وارادة اصحاب المصانع ، مما زاد في استقرار العامل ، وانتشـــار الصحف على صورة ما بين صفوفه .

واللون الثاني من الأشكال الفنية التي انتشرت بين العـــمال

وكذلك الفلاحين في بعض القرى الكبيرة او المجاورة للمدن .. هو الفيلم الأمريكي المعروف « بالحلقات » ، وهو هذا الفيلم الذي يعتمد على ابراز الانسان في صورة وحشية بدائيــة توحي بمظاهر البطولة الغريزية الزائفة : فهو يضرب ويسرق ويقتل ويحب ويهدم الأبنية الضخمة ويغوص في البحار والصحارى .. كل ذلك في صور زائفة من الآلية المثيرة .

انتشر هذان اللونان من الفن بين صفوف تلك الطبقات نتيجة لظروف هي التي اشرنا اليها في ايجاز ، فما دلالة ذلك ؟.. دلالته ان تخلف شكل من الاشكال الفنيــة هو انعكاس لتخلف الاشكال الحضارية نفسها ، وان معالجة التخلف الفني في الموسيقى مثلا لا يمكن ان تنصب على الشكل نفسه دون مراعاة علاقة هذا الشكل بواقعه . فلن يكون هناك موسيقى مصرية الا اذا وجد جمهور ضخم بين ظروفه الواقعية ما يثير فيه انفعالات عميقة ، على ان يتاح له أن يعي هذه الانفعالات التي تولد في حركة محاولته الدائبــة لتنظيم الواقع الذي يعيشه ، وهو تنظيم لن يتم الا بعد جهد وانفعالات عديدة .. اذا تغير الشكل الحضاري للجمهور فلن تكون هناك موسيقى متخلفة ، فستكون الحاجة الى الموسيقى عنيفة ، ولا بد ان تكون الاستجابة هي الاخرى عنيفة .

الى مثل هذا الاتجاه من التفكير الموضوعي لم يلجأ الذين عالجوا قضية الموسيقى المصرية .. وهم صحفيون كبار كان في امكانهم بما لهم من سلطات فكرية وقدرة على التفرغ لعلاج المشكلة المعروضة ان يصلوا مع المصريين الى حلول أساسية لمعالجة قضية وجدانهم

المحروم ، ولكنهم اخذوا يقارنون مقارنات سريعة بين موسيقانا المقتبسة الزائفه وموسيقى الغرب الصحيحة العميقـــة ، واخذوا يتحدثون عن المعاهد الموسيقية ونقصها .. انهم يلتمسون الدواء في الداء ، ولن يكون هذا الدواء واقعياً بحال من الاحوال .. لن يخرج عن كونه دواء شعرياً نواسياً لاقيمة له .

بمثل هذا المنهج الاخير تعالج كثير من مشكلاتنا وقضايانا في الفكر والحياة . ونحن نرى انه منهج عقيم مفتعل لا جدوى منه، بل انه ذو نتـائج خطيرة قد لا يقصد اليها اصحابه .. ومن هنا فنحن نعتبر ان المنهج الآخر الذي يعبر عن المشكلة ويلتمس لها حلاً مع الوعي بجذورها وامتدادها دون ان يهدف من اثارتها الى الصياغة الجميلة ، او الموقف البطولي النائح وانما تعنيه المشكلة عناية حقيقية .. عناية اساسية صادقة تشغل ذهنه ونفسه في المدى الطويل .. نعتبر ان هذا المنهج الاخير في مظهريه : الابداعي الفني والموضوعي الفكري ، هو الممثل الحقيقي للحركة الثقافية التي يمكن ان نقيس نموها او تخلفها بمقياس ما يطرأ على هذا الاتجاه من تغييرات .

وتيار هذا المنهج الاخير مبعد عن الاتصال بكثير من جوانب الواقع لا يستطيع ان يصل اليها ولا يستطيـع ان يؤثر فيها تأثيراً حقيقياً عميقاً ، لان وسائل الاتصال الفكري كلها قد صنعت من عناصر ومن ظروف تجعلها عديمة القدرة على هـذا التوصيل ، في الوقت الذي تتيح فرصة كاملة لتوصيل تيارات فكرية اخرى هي نفسها من العوائق التي تحول بين الفكر المصري وبين تأدية دوره الكبير في حياة المجتمع .

وجد هذا التيار الثقافي الصادق نفسه امام عوائق حجرية صماء، وان بدت لينة الملمس سهلة ، فكان ان اتجهت مياهه البريئة الى التحايل حتى تفسح لنفسها طريق المضي والاستمرار ... ومن هنا ظهرت ابرز مشكلة في واقع الفكر المصري في (عام ١٩٥٥) ، تلك هي دراسة العائق نفسه.. مواجهة هذا العائق كقضية فكرية ذات اهمية وخطر ،وكانت المشكلة هي : هل يترك للعمل الفكري بما هو طبع وتوزيع ونشر ان يتحكم في مضمون العمل نفسه ؟.. ان العمل الفكري في المستوى التجاري له اخلاقيته الخاصة، بل ان هذا المستوى التجاري نفسه انما هو نمط من السلوك الفكري تضبطه قيم معينة ، وذلك دون شك مرتبط باحساس هذا التيار الفكري الصادق بحاجة المجتمع الى تغيير نظرته الى مفهومي: الفكر والعمل. فبعد ان كان الفكر مفهوماً مجرداً له عالمه الخاص وضوابطه التي لا يراعى في تحديدها مدى ملاءمته لواقع الحياة ، اصبح الفكر نقطة ارتكاز اساسية تساعد وتشترك في تحديد شكل الحياة في مختلف مجالاتها . اما العمل فقد كان يمضي اعتباطياً في الحياة وفي ظل قانون لا يقف الا امام الصورة المباشرة الصريحة للانحراف.. انه قانون يعاقب على «الرشوة» ولا يعاقب على الاعلان الذي يحمي نفسه برأسمال ضخم ويضمن وسائل التزييف والتأثير كيفما شاء.. بعد ان كان هذا مفهوم العمل ، اصبح المجتمع يحس بضرورة التدخل حتى لا تصطدم – كما كان يحدث وما زال – مفهومات متعددة للحياة الاجتماعية ، يصطدم مفهوم الحياة عند الرأسمالي بمفهوم العامل.. مفهوم الحياة الاجتماعية عند الرأسمالي هو تفسير

وسائل الربح والكسب والنشوة ومفهومها عند العامل هو ضمان العمل والامن.. وهما مفهومان متناقضان لا بد ان يصطدما وينتصر القادر بالطبع : والرأسمالي قادر بسلطاته العريضة، والعامل غير قادر بالقانون العاجز وبالحق الواضح الاصفر : من كثرة ما لحق به من ظلم . كان المجتمع يحس بضرورة تغيير مفهوم العمل ، وقد انعكست هذه الحاجة بعض الشيء على القوانين الجديدة التي صدرت في العام الماضي ، كقانون الشركات والحراسة على شركة السكر وشركة اخرى لعبود ، وقانون الصحافة .

ولكن المشكلة في علاقة الفكر المصري بالتنظيمات العملية لانتاجه ابعد من هذا كله : انها شبيهة بقانون سابق على القوانين الجديدة التي صدرت في العام الماضي او قبله .. فعندنا قانون قديم يحدد الصناعات والوان التجارة التي يمكن ان تقوم بين انحاء المجتمع ، فهو يبيح صناعة الغزل وتجارة القطن ولكنه يمنع زراعة «الافيون» والتجارة به... ان الافيون – بعد دراسة لآثاره الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية – مادة ضارة تنتقل من الارض الى البائع ومن البائع الى السوق... لقد عرف المجتمع تماماً انه مادة ضارة يجب منعها منذ البداية ، فعكس احساسه على القانون الذي قرر هذا المنع .

تلك هي القضية في العمل الفكري . فان من المطلوب تحديد «المخدرات» الفكرية ومنع المتاجرة بها لما لها من اضرار واخطار تهدم بعنف وفي انتشاء بجرم جذور الحياة والحضارة في المجتمع المصري الذي يحن للتطور والتقدم ويعمل لهما كلما استطاع .

ومن الممكن تحديد هذه «المخدرات» بوضوح واخلاص على ضوء حاجات المجتمع واهدافه . ولا شك ان وسائل المصادرة الفكرية تختلف عن وسائل المصادرة المادية .. ونقطة الارتكاز في المصادرة الفكرية هي : النقد الحر الصريح الذي تتكافأ فرصته مع فرصة ما يمكن ان نطلق عليه اسم «المخدرات الفكرية» التي نعتقد ان اوضح مثال لها هو ما تصدره مؤسسة فرانكلين من كتب دورية .

خاضت الفكر المصري اذن في العام الماضي معركة مخلصة اشترك فيها عدد كبير من الكتاب الشباب ، كان هدفهم فيها هو التغلب على العوائق التي تحول بين الفكر المصري وبين الحياة. كانوا يهدفون الى وضع ضوابط اخلاقية للعمليات التجارية التي تتحكم في الفكر على ان تستمد هذ الضوابط قيمها من صالح المجتمع وصالح الحضارة المصرية العربية الانسانية في مرحلتها الراهنة .. وكانت هذه المعركة حينما طالب الصحفيون الشبان بعدم اصدار المجلات الأمريكية في طبعتها العربية . وكان هدف المعركة هو تنبيه الضمير المصري العربي ، والتعبير عن حاجاته الفكرية تعبيراً تتبلور مفاهيمه في نماذج واقعية واضحة ، وقدنجحت المعركة تماماً، وأصدرالصحفيون المصريون قراراً يؤيدون فيه الاقتراح الذي قدمه الرسام المصري الشاب : احمد طوغان يطالب فيه بعدم اصدار هذه المجلات .

القضية الثانية التي شغلت الفكر المصري في موجة عام ١٩٥٥ هي : الاحساس على صورة ما بضرورة تغيير اتجاه الحركةالنقدية تغييراً أساسيــاً ، فنقطة الارتكاز التي كان النقد العربي المصري

يعتمد عليها في مراحله السابقة وهي : الشخصية الفنية مرةوالشكل الفني مرة اخرى ، او هما معاً .. كان النـاقد يسعى الى تفسير شخصية الفنان معتمداً على اعماله الفنية . وكان مرة اخرى يعمل على ايضاح الشكل الفني فيالتكنيك او غيرذلك معتمداً على المقارنة المستمـــدة من تراث الأدب العربي او تراث الادب في الغرب بالاضافة الى نشاطة الراهن. ولكن نقطة الارتكاز في النقد الجديد والتي ينظر على اساسها الى تقييم العمل الفني والشخصية الفنيـة .. هذه النقطة الجديدة هي المفهومات المستمدة من واقع الحياة كمفهوم العمل والحب والعلاقة الاجتماعية وغير ذلك ، فلا العمل الفني هو نقطة الارتكاز ولا الفنان .. كلاهما عنصر يدخل في حركة الحياة، وتتمدد قيمته بمدى ما اضافه الى هذه الحركه . لقد انتهت ألوهية الفنان وقداسته ، وتغيرت عبودية الحياة للعمل الفني ، وصارت الحياة – كما في الحقيقة – هي الأم ، هي النبع ، هي التيار الرئيسي .. وليس ما يعني النقد الجديد هو ان يقوم العمل الفني لنحصل على فن « نفاخر به بين الامم » ، بل ان نحصل على عمـــل فني مؤثر صادق الارتباط بالأم ، بالنبع ، بالتيار الأساسي الذي هو : الحياة بما لها من خصائص موضوعية لتحديدها أبعاد يمكن الوصول اليها .

ان النقد المصري قد أكتشف ، دون شك ، مجالات جديدة في الفن ، ومن هذه المجالات بانت في وضوح الضوء ظواهر وحقائق عديدة كانت مطموسة من قبل . ويكفي ان نشير الى مثالين هامين يمثلان تغيراً اساسياً في النظر الى موضوع صحب النقد المصري طيلة ربع قرن كامل . هذا الموضوع هو : مسرح الحكيم . والمثالان

هما دراسة الأستاذ محمود العالم لمسرحية «أهل الكهف» على ضوء علاقاتها بالمصريين ومأساة الزمن عندهم، وثانيهما دراسة الدكتور عبد القادر القط للمسرح الذهني عند الحكيم على ضوء مفهومات العمل والزمن والامومة والعلاقة الاجتماعية وتاريخية الاسطورة. كذلك اكتشفت الحركة النقدية - في مرحلة جديدة - تراثنا الشعبي واخرجته الى مجال الدراسة والتقييم، فظهر كتاب هام هو: «الادب الشعبي» للاستاذ احمد رشدي صالح، كما نشر الاستاذ زكريا الحجاوي صياغة جديدة موجهة للقصة الشعبية المعروفة «الادهم الشرقاوي». وهذه المرحلة من دراسة الادب الشعبي سبقتها مرحلة اخرى في الجامعة حيث كتب الدكتور عبد الحميد يونس دراستين عن ملحمتين شعبيتين، كما كتب الدكتور عبد العزيز الاهواني دراسة للشعر الشعبي في جزء من التراث العربي هو: الادب الاندلسي، ولم تعن الجامعة باظهار هذه الدراسات حتى اليوم.

هناك ايضاً خطوط كانت تشارك بوضوح في تكوين الاطار العام للموجة الفكرية في عام ١٩٥٥، تلك الموجة التي تمثل ما نسميه بالتيار الثقافي الحقيقي الصادق والتي تنفصل تماماً عن ذلك التيار الآخر الذي هو خليط من العناصر التي لا تمثلنا بحال. وهي مهما كانت واسعة الانتشار بسبب مالها من امكانيات إنما تمثل عائقاً ثقافياً لا ظاهرة ثقافية.. من هذه الخطوط الاخرى والتي نحب ان نشير اليها اشارة سريعة لحاجتها الى ان تدرس بالتفصيل: ازدياد الاهتمام بالفكر السياسي بما هو فكر موضوعي له خطره وعليه مسئوليات فكرية اساسية. ولعل اقرب مثال يمكننا ان نضربه

هو زيارة الصحفيين المصريين لروسيا ، واهتمامهم ، وبخاصة الكتاب الشبان منهم كأحمد بهاء الدين ، بتسجيل مشاهداتهم الفكرية لا المادية فحسب ، بل واخضاع المشاهدات المادية لبعض الضوابط الفكرية التي تحدد الاساس النظري للواقع المادي في روسيا. وخط آخر من هذه الخطوط الجديدة هو الاهتمام بتحديد علاقة الدين بالمجتمع على أساس جديد يبلور اتجاه الواقع العملي في حياة المدينة التي تزحف بحضارتها وما تحمله من قيم اجتماعية الى مسرح وجودنا المعاصر . ان تراث الفكر الديني عند العرب كما وصل الينا كان مشغولا بان يجعل من اللامعقول معقولاً . اما المعقول نفسه فلم يكن يعنيه أن يفكر فيه ، وان يعمل على الا يتحول الى لا معقول. كانت القضية التي يعرض لها هي – مثلا – كيف وجد العالم. أما قضية العالم نفسه، العالم الموجود الذي يتطلب النظام والاستقرار، فلم تكن بالنسبة لهذا الفكر الديني الا في مرتبة ثانية قد لا تأتي أبداً . فالفكر الديني يحاول اليوم ان يتجه اتجاهاً مستنيراً لوضع أساس جديد للعلاقة بين الدين والمجتمع . وحسبنا ان نشير الى المعركة التي دارت أخيراً على صفحات مجلة « روز اليوسف » على اثر مقال كتبه الدكتور محمد احمد خلف الله عن رأي الدين في شكل من اشكال العلاقة الاجتماعية هو : الزواج . وكانت وجهة نظره تميل الى وضع أساس للتفكير في الدين من زاوية التطور الاجتماعي الذي يفرض مظاهره المختلفة على الحياة والتي لا بد ان يستجيب لها الفكر في مختلف مجالاته ويعمل على تنظيمها ومساعدتها على النمو.. وليست هذه المعركة القصيرة بذات قيمة في نفسها اذ انها

ضيقة ومحدودة ، بل ان قيمتها كامنة فيما تشير اليه وتدل عليه .
من طبيعة الموقف الديني الجديد .

بقي أن نشير الى بعض العوائق التي تعترض الحياة الفكرية اليوم وقد أشرنا الى معظمها ضمن العرض السابق لمختلف الظواهر، ولكننا نعود فنركز هذه العوائق في مظهرين أساسيين :

أولهما ان التقدم التكنيكي سابق على المستوى الاجتماعي في وسائل التعبير المختلفة وعلى رأسها الاذاعة والصحافة ، ولهذا التفوق التكنيكي أسبابه الخطيرة ، وله نتائج ذات أثر بالغ .

ثانيهما : شدة الاغراء الاجتماعي الذي يحول بين الكتاب وبين الالتزام المخلص لما يؤمنون به ، او يسلك بهم طريق الاستسلام والتنحي عن المسئوليات الكبيرة الملقاة على عاتق الفكر في هذه المرحلة — وقد شاركت الظاهرة الاولى، ظاهرة التفوق التكنيكي السابق على المستوى الاجتماعي في خلق الظاهرة الثانية وتأكيدها . فقد ساهمت الصحافة والاذاعة في خلق قيم اجتماعية مسيطرة وبعيدة في نفس الوقت عن التقدير السليم العادل لمعنى : وجود الانسان في مجتمع يناصر الفرد بالقدر الممكن وبلا عداء . كما ساعد على هذه الظاهرة ايضاً تحكم بعض القوى المادية الكبرى ذات الاهداف البعيدة في مراكز الانتاج الفكري من دور النشر والصحافة وغير ذلك .

واخيراً نشير الى ان هناك تجارب خطيرة قد مر بها المجتمع المصري في هذه المرحلة من حياته .. في عام ١٩٥٥ ، وسوف يكون لهذه التجارب أثرها البعيد — سلباً او ايجاباً — في استقرار

الحياة الاجتماعية في مصر وسوف يكون لهذه التـــأثيرات الهامة انعكاساتها الرئيسية على الوضع الفكرى في مصر . وتلك التجارب هي بايجاز: استقلال السودان ، ومفاوضات اتفاقية السد العالي بين أمريكا وبريطانيا من جانب ومصر من جانب آخر ، ثم اخيراً اعلان الدستور الجديد — كما انه لا بد من الاشارة بصورة خاصة الى ان وضع قضية فلسطين يساهم مساهمة اساسية في التـأثير على الاستقرار الاجتماعي وبالتالي على الحركة الفكرية .



الازهر والثقافة الجديدة

على مسرح الثقافة في مصر تدور بعض المعارك الظاهرة كما تدور معارك اخرى تحت هذا المستوى الواضح الظاهر ، وكثيراً ما طمست المعارك الظاهرة وجود الثانية . ولو تأملنا بعض الشيء كثيراً من هذه المعارك الظاهرة لوجدنا انها تحمل من الخصائص ما يمكنها من طمس المعارك الاولى والحيلولة بينها وبين الظهور . فمن هذه الخصائص : انها في الغالب معارك شخصية تدور حول الدفاع عن شخص او مهاجمة شخص ، ومن الممكن ان يكون هذا الشخص ممثلا لفكرة ما ، غير ان هذه المعارك الهجومية الدفاعية لا تقوم على اساس من الشخص بما هو فكرة ، بل تقوم حول الشخص بما هو مكانة وشهرة وغير ذلك . ومن طبيعة هذه المعارك الشخصية ان تكون حادة في ظاهرها وان تطول

نسبياً . ومن الخصائص الاخرى التي يتميز بها هذا الصراع الشخصي انه يوزع وسائل التعبير على الجبهات المتصارعة والتي تسعى من نفسها الى الحصول على هذه الوسائل وامتلاكها وتجنيدها في الدعاية للقضية المنشودة التي تبعد عن الفكر بمقدار ما تتركز في الشخص ولكنها تحاول دائماً ان تتستر بالفكر لتبرر نفسها امام اصحابها وامام الناس . ويساعد على ذلك مساعدة أساسية طبيعة وسائل التعبير السابقة نفسها ، فهي غالباً ما تكون قائمة على اساس من اثارة امثال هذه المشكلات التي تعفيها من مسؤولية التعبير عن المشكلة الحقيقية بما يتطلبه هذا التعبير المسؤول من التزامات — من هنا تتغلب بعض الوان الصراع الشخصي على كثير من الوان الصراع الاخير ولو الى حين . فهذا الصراع لا يمكن ان يكشف عن نفسه ما دام لا يجد الوسيلة الى ذلك ، وما دامت ثمة الوان من صراع زائف تريد ان تبقى طويلا على السطح تمتص دم القاع وتعوقه وتحول بين مظاهره وبين النمو والامتداد .

فقد دارت في مصر في الشهور الاولى من سنة ١٩٥٦ معركة حول بعض القضايا النقدية ، واشتبك فيها عدد كبير من الكتاب ، وكان على الراصد للمعركة الفكرية في مصر ان يرى في هذه المعركة المظهر الفكري الرئيسي للحركة الثقافية في هذه الفترة . ولكن المعركة القائمة هي — دون مغالاة ولا تجن — معركة شخصية محضة . فكثير من هؤلاء الكتاب كانوا يتحدثون عن اشخاصهم لا عن مواقفهم الفكرية ، ثم كانوا يصنعون من هذا الحديث الشخصي

المحض « ملاحم » تملأ الدنيـــا بالضجيج دونما مبرر حقيقي ...
حسبنا ان نشير بعد ذلك الى مقالين كتبهما الاستاذ عبـد الحليم عبدالله والاستاذ يوسف السباعي في عددين متواليين من « الرسالة الجديدة » يناقشان فيهما الدكتور عبد القادر القط فيما كتبه حول قصتين لهما في كتابه عن « الادب المصري » ، ونشير كذلك الى المقالات التي كتبت عن ظهور مجموعة « الوان من القصة المصرية » والتي تركزت لا في الدفاع عن اصحابهـا ، ولكن في اتهام ناشر المجموعة وناقديها : الدكتور طه حسين والاستاذ محمود العالم .

ليست هذه هي الوان الصراع التي تمثـــل الفكر المصري في مرحلته الراهنة ، فهي الوان تعكس خلافات شخصية محضـة وتؤدي – عن قصد او غير قصد – إلى طمس كثير من الوان الصراع الحقيقي الاخرى ، ولن ينتهي هذا الصراع الشخصي حتى تنتهي ظروف ظهوره ، فتجـد المشاكل الحقيقيـة وضعها الصحيح على مسرح الفكر والثقافة تلتمس الحلول وتسعى الى خلق وسائل المساهمة في التطور العـام للمجتمع الذي تعيش فيه .

فالاتجاه العام للتطور الجديد هو اتجاه التصنيع واخضـاع الزراعة لوسائل حديثة حتى تعمق بذلك موارد الدخل القومي وتتاح فرصة افضل للحياة في المجتمع المأزوم المضطرب . وهـذا الاتجاه العـــام لدى الشعب يعكس نفسه على المشاريع الجديدة للدولة . وحسبنا ان نشير الى ان الشهر الماضي قد شهد في مصر

مراحل اساسية في (١) مفاوضات مشروع السد العالي بين الحكومة وبين البنك الدولي الاميركي ، وشهد ايضاً مفاوضات بين مصر وروسيا لانشاء معـــامل ذرية متقدمة ، كل هذه الخطوات هي انعكاس لاتجاه الشعب نحو التصنيع وتغيير وسائل الزراعة كما هي عليه اليوم ، والسؤال الاول الذي ينبغي ان نجيب عليه ازاء هذا الاتجاه العام هو : ما مدى التلاؤم بين وسائل الثقافة العامة وبين هذا الاتجاه الواضح المحدود ؟ .

وسرعان ما يكشف الواقع عن حقيقة اساسية اولى تتمثـل في ازدواج النظم التعليمية في مصر ، ومن هنـــا تبرز مشكلة الصراع بين الثقافة الدينية ممثلة في الازهر بمعاهده وكلياته والثقافة المدنية ممثلة في الجامعة ومدارس التعليم المدنى الاخرى . وسوف نتحدث عن الازهر باعتباره اولى وابرز ظاهرة تواجه المتأمل في الواقع الثقافي ليرى مدى تلاؤمه مع الاتجاه الحضاري العـــام للمجتمع . وليس في معالجة مشكلة الازهر مـا يعنى ان التعليم المدني تعليم سليم كامل ، بل ان ذلك يعنى ان هذا التعليم المدني هو نقطة الانطلاق الاساسية نحو مسايرة التطور والمساهمة في دفعه.

الاساس الاول للتطور كما قلناهو تغيير الاطار المادي للحضارة المصرية وتحويله من الزراعة المتخلفة الى الصناعة والزراعة المعتمدة على تقدير عادل لجهود الفـــلاح الزارع ، وذلك بتحول اعتماد

---

(١) كتب المقال قبل قطع هذه المفاوضات ، ومـا ترتب على ذلك من نتائج ضخمة في تأميم القنال ثم العدوان الاستعماري الاخير .

الزراعة على الوسائل الحديثة بدل الوسائل المتخلفة وتغيير الشكل الاجتماعي للحياة في المسكن والاسرة وعلاقات العمل بما يساعد على زيادة الانتاج والاستقرار الانساني . فمصر بلد زراعي منذ أمد طويل والانسان المصري يبـــذل من الجهد في الارض ما لا يساوي الشقاء الذي ينتظره في صراعه مع اي مجهول آخر يمكن ان تؤدي اليه الهجرة والتنقـــل الا" حيثما كانت الارض ترفضه وتضيق به . وقد تمت هذه الهجرات والتنقلات في داخل المجتمع نفسه . ومن المألوف في حيـاة القاهرة والمدن الكبرى والصغرى في الدلتا ان يوجد بين اهلهـا فئة من العمال تقوم على اكتافها حركة البناء والتعمير التي تحتاج الى عمليات تكلف الانسان جهداً عنيفاً قاسياً . هذه الفئة من فئـــات العمال لا تستقر طيلة مواسم السنة في مكان واحد من العـاصمة او شتى بقاع الدلتا ، بل انها تقيم حيثما يكون هذا العمل الشاق او غيره من الاعمـال المؤقتة ، ويفدُ معظم افراد هذه الفئة من فئات العمال من الصعيد ، وذلك لان الظروف الزراعية هناك اكثر شدة وضيقاً ، فالارض أقل كما من ارض الدلتا ، ووسائل الري أقل تقدماً هي الاخرى من وسائل الري في الدلتا . هذه الفئة الشقية المجهـدة من فئات العمال هي وليدة الضيق الزراعي في الصعيد وضحيته ايضاً . وليس هناك من فئة اخرى تدل على عدم استقرار الطبقات العـامة من المصريين وارتباطهم ارتباطاً عميقاً بالارض سوى هذه الفئة العاملة التي ترحل فترة طويلة من ايام السنة عن الصعيد لتعمل في القاهرة او في مدن الدلتا ثم تعود لتقضي بين اهلهـا الممزقين فترة قصيرة

من ايام السنة . واذا ضممنا هذه الفئة المجهدة الى طبقـــات العمال الناشئة في مصر فاننـا نجد ان المجموع لا يزيد عن مليون فرد ، بينما مـا زال المرتبطون بالارض اكثر بكثير من نصف المجتمع المصري ... انهم الفلاحون على اختلاف فئـاتهم من ملاك كبار وصغار ومستأجرين وعمال زراعيين .

في هذه البيئـة التي تميزت بالاستقرار الطويل ولد الاحساس العميق بالدين ، فشروط هذا الاحساس كلها متوفرة : ارتبـاط حاسم بمصير ضيق ، فالعالم المادي محدود بالارض التي تحمل الناس نفسهم والخصائص نفسها كل لحظة ، وزراعة تعتمد على وسائل متأخرة لم تتجدد ابداً الا بعد نمو الاقطاع وفي مناطق محدودة ... ومن شأن مثل هذا العالم الطبيعي الا يقدم تفسيراً موضوعيـاً للاشياء وان يكون هناك مكان كبير فيه للخرافات والنزعـات القدرية الغامضة . ويتركز هذا كله في مفهوم منحرف للدين يظل مسيطراً على علاقة الانسان بالانسان وعلاقته بالعـالم والظواهر الطبيعية . وقد سيطر هذا المفهوم على الحياة وكثر استغلاله في تنظيم المجتمع تنظيماً يخدم بعض الطبقات التي لم تكن تحكـم ضميراً انسانياً في سلوكها الاجتماعي بقدر ما كانت تحكم مصالحها التاريخية ومصالحها الجديدة .

ولنقف امام هذا المفهوم الديني الذي ظل يمد الازهر بعصب حياته حتى اليوم لنرى عناصره وخصائصه الرئيسية . لقد تكون هذا المفهوم كما رأينا في ظل عالم زراعي مستقر ، وهو عالم متخلف يعتمد على وسائل بدائية في الزراعة ولا تقوم الزراعـــة فيه على

دراسة عميقة لطبيعة التربة واقتصاد المجتمع. وان كان هناك انسان يعرف كل الحقائق عن الارض في مصر فهو كائن آخر غير الفلاح : لقد كان احياناً هو المستعمر الذي يغري بزراعة القطن كغلة اساسية في الارض المصرية بدل القمح والدخان وذلك لما سيترتب على هذا الوضع الزراعي من استمرار حاجة المجتمع لبعض واردات المستعمر التي يريد لها النمو والازدهار. وكان احياناً اخرى هو الاقطاعي الذي يبيع القطن في الخارج بارباح تزيد على ما يحصل عليه من بيعه للقمح في الداخل ... في مثل هذا العام يعيش الفلاح في تأخر وخوف وعدم فهم لحقائق الاشياء، وهنا تولد القوى المجهولة لتجيب عما يمكن ان يثور في ذهنه ونفسه من اسئلة عن العالم والمجتمع، ويعمل الدين – بمفهومه الخاص المنحرف – على تنمية هذه المشاعر كلها : انه ينمي خوفه وينمي استسلامه وينمي معرفته المغلوطة لحقائق الاشياء. ولا شك ان الدين يؤدي هذا الدور بعد ان تتوفر شروط هذا الانحراف من الجهل والعمل البدائي والنظام الاجتماعي السائد الذي يساعد في بعض صوره على تنمية هذا المفهوم الديني المنحرف وتأكيده.

وهكذا يؤدي الدين في البيئة الريفية بمصر وظائف عديدة، فهو يبرر للفلاح نظام الحياة الاجتماعية مهما وجد هو فيها من عدم العدالة نتيجة للظلم الواقع عليه من الاقطاعيين مثلاً، وهو يجد فيه عزاء من حرمانه من الحياة في الوقت الذي يحتاج فيه الى تغيير اسباب حرمانه وتعديلها ما دامت هذه الاسباب موضوعية وواضحة، وهو يجد فيه ايضاً تفسيراً للعالم بظواهره الطبيعية مما

يؤدي به الى تصور هذه الظواهر على انها ساكنة جامدة تنتسب الى عالم خرافي غامض ، فلا يدرك انها ظواهر تفيض بالامكانيات وان في استطاعة هذه الامكانيات لو تم استغلالها ان تغير له حتى عالمه الخاص الذي يعيش فيه فتزيد من قوة الارض على الانتاج وتمنحه مسكناً قادراً على خنق كل القوى الخفية التي يمكن تصورها في الحياة ، وتغير علاقاته بمن يعيش معهم ، فلا تكون علاقات مضطربة ظالمة في بعض الاحايين بل تصبح علاقات منتظمة تحرسها على الدوام قوانين عادلة .

واذا كانت هذه هي وظيفة الدين بالنسبة للفلاح الزارع المنتج، فهي ليست وظيفته لدى الفلاح المالك المستغل . فوظيفته احياناً هي الدعاية لوجوده ووضعه في مجتمعه وهي احياناً اخرى التغطية والتمويه حتى لا يتحرك الفلاح الحقيقي من نقطة الفهم الموضوعي وادراك الحقائق . ولو نظرنا الى تاريخنا الحديث طيلة فترة النظام الملكي مثلا لوجدنا ان هذا الشعور الديني الامي كان من اكبر الدعامات التي يعتمد عليها كل انتكاس وطني واجتماعي خطير في حياة المصريين . ولسنا نحب بالطبع ان نعرض بالتحليل لجماعة الاخوان المسلمين ، فهذه الجماعة كانت تعتمد على طبقة خاصة من شباب المثقفين ، ولم تكن تعتمد على قوى الفلاحين الشعبية ... لقد كان لهذه الجماعة وضعها الخاص ضمن التنظيمات الحزبية ولم تكن ذات علاقة اساسية بالشعور الديني العام وان كانت قد اعتمدت عليه واستفادت منه .

هذا هو الوضع الذي كان يدفع الفلاح المصري الى ان يربط

تعليم ابنائه بالدراسة الدينية بالازهر (١)، وهذا الوضع هو جانب واحد من جوانب القضية ، امـــا الجانب الثاني فهو الدراسات الدينية في الازهر نفسه . واول مـــا يلاحظ في هذه الدراسات انعزالها الـكامل عن الحياة . فعلى سبيل المثال نرى انه منذ مطلع القرن الحالي حتى اليوم لم يدخل ضمن برامج الازهر من العلوم الحديثة الا القليل المتخلف الذي لا يذكـر ، فحتى الدراسات النظرية من العلوم الحديثة كالاكتشافات الجغرافية ودلالاتهـــا الرئيسية او تاريخ العالم الحديث او اللغات الاوروبية ... كل هذه الدراسات لا توجد الا بصورة ضئيلة جداً ضمن برامج التعليم الازهري ، كل ذلك فضلا عن العلوم التجريبية الحديثة كالطبيعة او الكيمياء . والحق ان هذه الظواهر مترتبة على اتخاذ الدين مركزاً للدراسات في هذه الجامعـة ومعاهدها المختلفة ، فالعلوم الرئيسية في الدراسات الازهرية هي المتصلة بالشريعة والفقـــه الاسلاميين ، ثم اللغة العربية والفلسفـة الاسلامية ، وهذه العلوم كلها مليئة بالاضافات اللاضرورية والتعقيدات التي لا قيمة لهـــا والتي لا تدخل في الافكار الرئيسية للدين نفسه . فمن الممكن على سبيل المثال – ان يفهم الرجل العادي احكام القرآن بعد مجهود بسيط يستغني فيه تماماً عن كلّ الخلافـات الموجودة بين النحاة ، تلك الخلافات العديدة الكثيرة التي تدخل في تفاصيـل مسرفة تسيء الى النصوص نفسها . ولو حاولنـا ان ندرس ظروف نشأة

(١) كانت هناك عوامل جانبية اخرى في اقبال الفلاحين على تعليم ابنائهم في الازهر مثل مجانية التعليم الازهري، ولكن هذه العوامل لم تكن رئيسية .

هذه العلوم المعقدة لتبينا ان العلماء الذين عملوا على تعقيدها وتعميقها قد اتجهوا الى ذلك في فراغ واطمئنان كاملين الى حد بعيد . مثل هذه الحالة التي كانوا يعيشون فيها كانت تعنى انفصالهم عن مجرى الدين في حياة الناس ، فلم يكن تفكير هؤلاء العلماء ينصرف الى موضوع المجتمع وتنظيم علاقاته والاشراف على ادارته من وجهة نظر العدالة الدينية ، بل انصرفوا الى الدين بما هو سلوك فردي مرتبط بالعبادات والمشاعر وحسب . بينما كانت حقيقة الحضارة الاسلامية في عهدها الاول هي انها تعتمد على دين يدعو الى نظام اجتماعي خاص وعدالة اجتماعية شاملة كانا يمثلان انقلاباً حاسماً بالنسبة للحياة السابقة على ظهور الاسلام وبالنسبة للنظم الموجودة في شتى بقاع العالم آنذاك . لم يكن الدين تنظيماً لعبادات ومشاعر فردية وحسب وانما كان يقوم أساساً على تحديد النظام الاجتماعي في صورة عادلة مستنيرة تعترف بالانسان وتحدد قيمها ومقاييسها على اساس من جهوده المستمرة في العالم ، وتسعى كذلك في مساواة عادلة الى تنظيم علاقة المجتمعات ببعضها مع تحديد واضح لاعداء الإنسان وهم يشوّهون فطرته او يستغلونه او يسيئون الى أمنه وسلامه . كما ان هناك ظاهرة واضحة في اشد البيئات تديناً ، تلك هي ان اقل الناس قدرة على اداء الفروض والعبادات هم هؤلاء الذين لم يجدوا الاستقرار والهدوء في رحاب المجتمع فيخرجوا عن كل تقاليده واصبحوا طبقة مزدراة حقيرة . ففي الريف المصري نجد ان اقل فئات العمال قدرة على اداء فروض الدين هي فئة العمال الزراعيين . فقد ظل هؤلاء العمال الى وقت قريب يعملون

من شروق الشمس الى غروبهـــا فانصرفوا انصرافاً كاملاً عن الفروض الدينية ، وظلت هذه الفروض مقصورة على من يحصلون على استقرار نسبي أو كامل في حياتهم الاجتماعيـــة . فالدين من الاهتمامات الرئيسية للطبقات ذات المنزلة الاجتماعية المرتفعة في القرية بالاضافة الى طبقة الفلاحين من الملاك الصغار والمستأجرين . وفي هذا المثال دليل واضح على سبق الاستقرار الاجتماعي ولو في ادنى صوره على المسلك الديني ، مما كان يحتم ضرورة الاهتمام بالوضع الاجتماعي كما حدده الدين على اساس من العدالة الكاملة قبل اللجوء الى تفاصيل عديدة معقدة فيما يخص الجانب الشعوري الفردي في الدين وهو العبادات . ولكن العلماء الذين سيطروا على الفكر الاسلامي لم تشغلهم – في الغالب – شئون الحياة الاجتماعية ، بل استغلوا فراغهم الواسع في خلق فكر لا يمكن ان يؤثر تأثيراً سلبياً في حياة الناس ، وحسبه تأثيراً ان يبعد الفكر عن الحيـاة ويعمل على تعقيد قضاياه حتى يتمكن الحكام الذين صنعوا الفراغ لمن يسرفون في دراسة الوحي والعبـادات ان يظلُّوا مسيطرين ولو بوسائل ظالمة ومن اجل اهداف ظالمـة دون ان يرفع العلم صوت الدين الحقيقي ليعيد تنظيم الحياة والمجتمع ويقر العدالة في واقع الناس ونفوسهم... لم يكن الذين ساعدوا على خلق هذه العلوم والاسراف في تعقيدهـــا وتعميقها ثم تدريسها والسماح لها بفرصة السيطرة على الواقع الثقافي الى مدى طويل... لم يكونوا يقصدون بذلك خدمة الدين بل خدمة اغراض اخرى ضد الحياة وضد الدين نفسه .

كان الطالب المصري الفلاح يدخل الازهر بحافز المشاعر الدينية المنحرفة القابضة على واقعه ليدرس هذه المواد المرهقة المعقدة ويمكث في الازهر مدة طويلة ثم يخرج دون ان يستطيع تأدية وظيفة متطورة في مجتمعه . وحسبه تلك المعرفة الدينية التي تزيده قيمة وكرامة لدى اهله ، في الوقت نفسه الذي كانت البيئة المصرية فيه – وما زالت – في حاجة الى كثير من الوان التطور الحقيقية الواضحة التي تغير مسكن الفلاح وتغير وسائل زراعته وتغير نظرته الى حقوقه واحساسه بها حتى يصبح هذا الريف القابع في قاع مصر مثقلاً بالتخلف والضياع والاسى وطناً خصباً معطاءً كما هو في حقيقته .

لا بد بعد ذلك من الاشارة الى حقيقتين ، اولاهما ان رجل الدين في مصر قبل القرن العشرين كان هو نفسه في كثير من الاحيان رجل الفكر ورجل القيادة الشعبية . ومن هنا فانه لا يمكننا ان نردّ وجود امثال عمر مكرم – كواحد من اكبر قادة الشعب في القرن التاسع عشر – الى الازهر وثقافته الدينية ، فقد تدخلت عوامل عديدة في تكوين هذه الشخصيه منها عمق علاقته بواقع مجتمعه ووعيه الذاتي ، والحقيقة الثانية هي ان رجال الفكر وقادة الحركة الوطنية الذين ارتبط اسمهم بتاريخ الازهر في القرن العشرين وقبله : كجمال الدين الافغاني ومحمد عبده وسعد زغلول وطه حسين وامين الخولي واحمد امين لم يكونوا ابداً من تلامذة الفكر الديني كما وصلنا في التراث العربي ، فقد كان معظمهم من المتمردين على هذا الفكر المساهمين في تطويره وتعديله ، ثم

كانت لهم صفاتهم الخاصة الاخرى كدراسة واقعهم وتحديد مناهج مستنيره لتطويره وتغييره ثم الكفاح من اجل تطبيقها ... وذلك هو كلّ ما ابقاهم مرتبطين في الاذهان بتاريخ التطور وليس هو أبداً ثقافتهم الازهرية ولا ارتباطهم بالفكر الديني عند العرب .

ان وجود التعليم الازهري هو صورة منحرفـــة من صور استغلاله الدين والاعتماد عليه كأداة لتعطيل التطور . ولا شك ان الاستعمار قد ساهم في وجود هذا الازدواج التعليمي واستمرار سيطرته خلال هذا القرن وقبله . ان الازهر كجامعة كبرى مجيدة في تاريخ الشرق العربي الاسلامي قد ادى دوره في الماضي بما كان يتيحه من فرص التجمع الحرّ والحديث في شئون الحياة ودراستها ومحاولة وعي حركتها بين العوائق والحوافز . وقد تغير اليوم شكل الدراسة في الازهر فاصبحت خاضعة لنظم قريبة من نظم المدارس المدنيـة . وكذلك تغيرت وسائل التعبير عن مشكلات الحياة ودراسة اتجاهات المجتمع ، واصبح شكل الدولة مختلفاً تماماً عما كان عليه ايام الفاطميين « الذين انشأوا الازهر » او غيرهم ولم يعد هناك مبرر لبقاء الازهر سوى دراسة التراث الاسلامي دراسة حديثة مستنيرة ، ولا يتم هذا بالطبع الا اذا بقي كجامعة مستقلة لها طابعها الخاص الذي لا ينفصل في نفس الوقت عن الوعي بالحياة الجديدة . وينبغي لهذا ان يتم الغاء التعليم الديني السابق على المرحلة الجامعيـة حتى تستمد الجامعة الازهرية حياتها من نفس المنبع الذي تستمدهـا منه الجامعات المصرية الاخرى ، وحتى ينتهي هـذا الازدواج الضار في نظم التربيـة

والثقافة في المدرسة المصرية ، فنحن في حاجة الى ثقافة علمية واضحة وفي حاجة الى حضارة جديدة تغيّر النظام القائم في حياة القرية وتجعل من عمرانها الى مدينة صغيرة خالية من ظروف المرض والخرافة والجهل ، وتكشف في انسانها عن تلك القوى المبدعة القادرة على العطاء والانتاج والغناء والحب . ولم يكن الدين في يوم من الايام ضد حياة الانسان ومستقبله ، فكل رؤوس الحركات الدينية في التاريخ كانوا يمثلون اعظم الانقلابات الانسانية في الادوار الحضارية التي انتسبوا اليها بما لها من ظروف واوضاع خاصة وكان ميلاد كل الاديان تعبيراً عن استجابة الانسان البطولية لحاجته الى تغيير واقعه وتعديله الى صورة فاضلة عادلة ، وهي حقاً استجابة بطولية لانها خرجت عن أعمق اغوار العقل والشعور الانسانيين في ذلك الحين ، كما اعتمدت على كل القوى النضالية في حياة الانسان لتساهم في بناء ذلك العالم الفاضل المنشود ، والدين الاسلامي ولد في لحظات كانت من امجد لحظات الميلاد في تاريخ الافكار التي ساهمت في تغيير العالم وتطويره . كان يعتمد على الفكر الموضوعي الواضح البسيط لمقاومة عالم ظالم لا عدالة فيه ، ولا شك ان تلك القوى الظالمة قد عاودت ظهورها على مسرح التاريخ العربي بعد ذلك لتحول بين الجديد كفكر موضوعي يهتم بالمجتمع والانسان - وبين التأثير في الحياة مع الابقاء على الجوانب الغيبية الفردية فيه ، بل وقد استغلته استغلالا طويلاً كريهاً .

فالحضارة الجديدة التي يحتاج اليها تطورنا ، هذه الحضارة الصناعية التي تعتمد على النظام المدني وعلى انتصارات العلم الانساني

في تنظيم المسكن والعلاقات الانسانية في العمل والانتاج ...
هذه الحضارة في غنى حقيقي عن ذلك الفائق الذي يمثل طرفاً من صراع حاد يقوم اليوم على مسرح الثقافة في مصر : بين ثقافة المدنية والعلم والصناعة والنفس الانسانية المستنيرة المنحصرة وبين ثقافة التعقيد التي نمت بين احضان حكام لم يكونوا يبحثون عن مصالح شعوبهم ولا يدافعون عن الدين بقدر ما كانوا يعملون على التقليل من قيمة كلّ سلاح يمكن ان يؤدي بالشعوب الى الحصول على حقوقها التي كثيراً ما حرمت منها ، ولا نشك في ان الثقافة الاولى ستنتصر في النهاية ، بل انها تسجل انتصاراتها كل يوم وتخوض معارك اخرى من اجل ان تتطور هي نفسها وتقاوم العقبات التي تحول بينها وبين تأدية وظيفتها الحقيقية الصحيحة ولكن الحركة التلقائية للصراع تطول دون شك لو لم تتدخل عناصر واعية في ترجيح جانب من جوانب هذا الصراع هو الجانب الذي يتلاءم مع خطنا الحضاري الجديد .

كلمة سلام

« كلمة سلام » ... ديوان من الشعر الشعبي للشاعر الرسام صلاح جاهين، وقد صدر هذا الديوان عن «دار الفكر» المصرية... ويمثل الديوان ظاهرة فريدة في واقعنا الفني . فهو وعي معتمد على الثقافة والبصيرة المستنيرة يعبر عن تجاربه في صياغة شعبية هي الصياغة التي تقوم عليها الحياة اليومية العامة . وفي تراثنا الشعبي لونان من التعبير الشعري احدهما التعبير الجماعي الذي لا يعرف كاتبه والذي يتمثل في المواويل والاغنيات الشعبية الشائعة في المناسبات الاجتماعية المختلفة لحياة القرية او البيئات الشعبية في المدينة ، وهذا اللون من التعبير الشعري يمتص في مضمونه كل المعتقدات والتقاليد والعواطف والخرافات التي تعيش في بيئات الشعب المختلفة . واللون الآخر من التعبير الشعري في ادب الشعب

هو ذلك اللون الذي عرف له مؤلف . فمنذ القرن الماضي وهناك مؤلفون شعبيون شاركوا في التعبير عن الانبعاثات القومية للشعب المصري في كفاحه الطويل مع المستعمر والسراي والاقطاع وغير ذلك من القوي التي كانت تعوق خطواته في سبيل التقدم والتحضر ، بل وكانت تضغط عليه ضغطاً عنيداً ظالماً فتطحنه في معاركها وازماتها المصطنعة كلّما شبت حرب ، وكلّما أرادت الامبراطورية الانجليزية – مثلا – ان تستثمر اموالها وتبيع منتجاتها في اسواق مضمونة ميسورة . ومن هؤلاء الذين صاحبوا الحركة القومية في نضالها وحركة تقدمها وعبّروا عنها بلغة الشعب تعبيراً طالما قاد وجدان الناس وعمل على تجميعهم حول قضاياهم الحقيقية : عبدالله النديم ويعقوب صنوع (ابو نضارة) وبيرم التونسي ، ثم اخيراً شاب من اصل لبناني اسمه : فؤاد حداد ... ومع هؤلاء كان هناك صوت عميق يشير الى لغة الشعب ويؤكد انها زاخرة بالقوى التعبيرية ثم يقدم امثلة من محاولاته هو ، تنجح احياناً وتخفق احياناً اخرى ، ولكنها تظل قادرة على الاشارة الى امكانية الصياغة الجديدة على التعبير ... ذلك الصوت العميق هو صوت الدكتور لويس عوض في ديوان اخرجه سنة ١٩٤٧ تحت اسم : بلوتولاند .

لا بد من الاشارة بعد ذلك الى لون ثالث من الوان التعبير الشعبي في الشعر ، ذلك اللون هو الذي تعتمد عليه الاذاعة في اغانيها المختلفة . وقد خلقت الاذاعة طبقة من المحترفين الذين يكتبون الاغنيات الشعبية التي لا يجهدك ان تحسّ فيها الافتعال

والكذب بعيداً عن القيم الفنية العميقة التي يمثلها الشعر الشعبي الجماعي لانه وليد الفطرة السليمة والعاطفة التي لم تشوهها أكاذيب الاصطناع والحرفة ، كما لا يجهدك ايضاً ان تجد في هذا اللون الثالث البعد عن الوعي ، هذا الوعي الذي يتميز به اللون الثاني من الوان التعبير الشعري الشعبي والذي كان يحاول تطويع الشكل الفني لتجارب مستنيرة واضحة لا تلقائية فطرية وليدة بيئة مهزومة مضغوطة كما هو الامر في الشعر الشعبي الجماعي ... يتضح في هذا اللون الثالث الذي تعتمده الاذاعة اذن : انعدام الصدق الفني والخلو مما تتميز به مفردات صياغته في لغة الشعب ، كما يخلو هذا اللون الثالث من الوعي الذي يتميز به هؤلاء الذين درسوا واقعهم دراسة عميقة حتى صارت هذه الدراسة نفسها — مطعمة بالتجارب المختلفة — عاطفة تخلق الشعر الشعبي الذي يحنو على تجارب الناس واشعة عيونهم المتطلعة نحو مستقبل انساني اكثر طيبة ورخاء وقدرة على تحطيم اغلال وجداناتهم السجينة في الاضطراب الاجتماعي القاسي الشديد — واذا كان هناك من قيمة تبدو في اغاني الاذاعة الشائعة فانها القيمة المستمدة من جمال الصوت نفسه . وحسبنا ان نذكر « ام كلثوم » كمثال على ذلك فان اغانيها الشعبية لا قيمة لها بالنسبة للوجدان الشعبي الحقيقي . والقيمة الحقيقية لهذه الاغاني لدى الناس متركزة في طاقة ام كلثوم الصوتية الضخمة ومعدن صوتها الممتاز . ان هذه الفتاة الريفية لا تغني ابداً الريف الذي خرجت منه وولدت فيه وتبلورت مواهبها في اعماقه . لقد اختطفتها المستويات الاجتماعية العالية في

العاصمة المصرية وغيرها من العواصم لتغني لها اغاني بعيدة تماماً عن الطبيعة التاريخية لام كلثوم ... اغاني من هذا اللون الثالث الخالي من عمق الفطرة الشعبية وبساطتها وبعدها عن الافتعال ، والخالى من وعي الفنان الذي درس الشعب واحبه واراد ان يغني له ... ولولا معدن صوتها لما كان لهذه الاغاني اية قيمة حقيقية .

بين هذه الالوان يخرج صلاح جاهين ليمثل نقطة مضيئة متطورة في اللون الثاني من الشعر الشعبي ، هذا اللون الذي يمثله فنانون واعون عبروا بلغة الشعب عن تجارب حياتهم معه . فصلاح جاهين واعٍ الى حد كبير بواقعه ، انه يعرف المعنى الموضوعي في عرق الفلاح ، فيغني له تارة اغنيات الفرح العذبة التي تولد في نفسه مع تموُّج سنابل القمح وهي في صباها تميس على صفحة الارض المصرية الطيبة ... انه يغني له « القمح زي الدهب » ... ثم يغني له احزانه المنتكسة والقمح حصاد هزيل تحت وطأة الضرائب والغلاء واضطراب الحياة الاجتماعية .. فيغني له : « القمح مش زي الدهب .. القمح زي الفلاحين » . وهو واعٍ ايضاً بسطوة المصنع الكبير وضعف العامل الوحيد المنفرد ، واعٍ به وعياً موضوعيّاً عميقاً : فالعامل الوحيد تضغطه قوى المصنع والقوانين والمدينة الملتهبة غلاءً وخلوّاً من الحنان .. ولكن الشاعر المستنير لا يقف امام تصوير هذه المشكلة وحسب ، بل يسجّل في عذوبة بسيطة كل ما يصاحب حركتها المادية من انفعالات ، ثم يصوّرها منطلقة من خلال المزيعة مع التاريخ الذي يجب ان نصنعه والذي يعني في كلمة بسيطة : ان امثال هذا المشتغل الطيب ينبغي ان يعيشوا في امن

وسلام وامل ، وان قيمة الحضارة مرهونة بمدى ما تحققه لامثال هؤلاء المواطنين . فالحضارة التي تسحقهم حضارة متخلفة ، والتي تحنو عليهم حضارة متقدمة ينبغي الدفاع عنها والمساهمة في تحقيقها..

وهو واعٍ ايضاً بأزمات الشباب في مجتمعه : انهم يضحكون ويلهون وينتحرون ويدخلون السجون .. كل ذلك ليس إلا وسيلة للتعبير عن ازمة قائمة ، وهو تعبير منحرف يدل على ان صاحبه وصل الى تلك النقطة التي ينبغي ان يحفظ فيها توازنه اما بالقضاء على نفسه مادياً ، او بالقضاء على نفسه عن طريق تغيير اتجاه فكره وشعوره - والشاعر واع لذلك الروح الغنائيـة التي يمتزج فيها الأسى والتفاؤل، انما روح « الموّال » التي تغرق عالم الصيّادين في مصر بالحوافز الغـامضة الصوفية الصامدة في سبيل استمرار الحياة ... وهو واعٍ بدورة الحياة التي يدعو في عمق الى المساهمة في توجيهـا وهو يدرك ويريد ان يكون اتجاه هذه الدورة في صالح الانسان وان تكون حركتها الرئيسية هي « بكرة اجمل م النهار ده » .

يلتقي هذا الوعي بعنصر الاستعداد الطيب لامتصاص التلقائية والبساطة وخصائص النغم المختلفة من الشعر الجماعي الشعبي . هذان العنصران : عنصر الوعي والدراسة وعنصر التمرّس بالـتراث الشعبي والتجارب التي ولدته يجعلان من ديوان صلاح جاهين ظاهرة طيبة في حركتنا الثقافية الحديثة .. ظاهرة تتركز فيها خصائص التعبير الشعري عن وعي وارادة - باللغة الشعبية .. وهو اتجاه يبرر نفسه متجنبـاً كلّ الخلافات التجريدية كلّها وجد شاعراً

متمكناً قديراً يستطيع ان يقدّم انتاجاً يأخذ شكله الخاص به ضمن الانتاج الادبي العام ، ويمهد لنفسه الطريق لكي يصل الى الجمهور عن طريق الوسائل الحديثة التي ما زالت مغلقة في وجه هذا الانتاج .. كالاذاعة والسينما والمسرح(١) .

(١) بدأت الاذاعة تفتح ابوابها في الفترة الاخيرة لبعض هذه النماذج ، ولقد ساعد على ذلك نوع المعركة التي مرت بها مصر منذ تأميم القنال والتي كشفت عن ضعف مؤلفي الاغاني الاذاعية ، واحتياج الاذاعة الى نوع من الشعراء الوطنيين الواعين .. نوع جديد من الشعراء .

محاولة شكلية

اعلن الدكتور طه حسين في يونيو سنة ١٩٥٦ عن محاولته لتبسيط الاملاء العربي ، وقد بدأ الدكتور طه بالفعل في تطبيق محاولته تطبيقاً عملياً في المقالات التي تنشرها له جريدة «الجمهورية». وجوهر المحاولة الجديدة هو : تحقيق تلاؤم كامل بين شكل الكلمة المكتوبة ونطقها . وقد قامت حول هذه القضية الوان مختلفة من الجدل ، فذهب البعض الى تأييدها، وذهب آخرون الى معارضتها ورفضها. وقد سبق هذا الجدل العام على صفحات الجرائد والمجلات جدل آخر بين جدران المجمع اللغوي حينما تقدم بنفس المحاولة استاذ من اساتذة اللغة في مصر هو الدكتور ابراهيم مصطفى . وقد عارض بعض اعضاء المجلس في هذه المحاولة ووافق عليها آخرون كان على رأسهم الدكتور طه حسين نفسه الذي سارع

بنقل المعركة الى خارج جدران المجمع وقدّم في مقالاته نموذجا تطبيقياً لما تهدف اليه المحاولة من تبسيط للاملاء العربي .

وقد عارض هذه المحاولة كثير من رجال الادب والفكر في مصر وعلى رأسهم العقاد وسلامه موسى ، كما ايد المحاولة بعض الادباء وعلى رأسهم رشدي صالح الذي اعطى للمحاولة الجديدة مدلولاتٍ ومعاني بعيدة تتصل بالواقع الاجتماعي العام في بعض مجالاته الرئيسية . والملاحظة ان الجدل في هذه القضية قد بدأ يخفت في النهاية ويتخلى عن حدته الاولى .

ومشكلة اللغة في الاعراب والاملاء ليست مشكلة جديدة ، بل هي في الحقيقة مشكلة قديمة لها صورها المختلفة . واحدى هذه الصور دون شك هي محاولة طه حسين الاخيرة . فمنذ مطلع هذا القرن ، منذ تلك الفترة التي بدأت فيها مصر تخط لنفسها طريقاً جديداً شاقاً في حضارة العالم ، وتعمل على تكوين فلسفة خاصة لها تصدر عنها تلك التطوّرات المنشودة التي يهدف المجتمع الجديد الى تحقيقها . . منذ تلك اللحظات والحركة الفكرية عندنا تأخذ صوراً مختلفة متصارعة في شتى الميادين والموضوعات . وقد كانت « اللغة » احدى الموضوعات التي نشب حولها الخلاف بين عدة اتجاهات ، وكان هذا الخلاف حول اللغة متصلاً أشد اتصال بالوان الصراع الاخرى في بوتقة المجتمع المصري . ونستطيع ان نحدد الخلاف حول اللغة منذ ذلك الحين بثلاثة اتجاهات حضارية . اما الاتجاه الاول فهو الذي يقدس الماضي ويرى فيه نموذجاً مثالياً لما ينبغي ان تكون عليه حضارتنا في لحظاتها التاريخية الراهنة ،

وهذا الاتجاه كما هو طبيعي ، كان يقدس اللغة العربية كمظهر من مظاهر تقديسه لذلك الماضي بكل عناصره ، وكانت اللغة بالنسبة لهذا الاتجاه محصورة في مفهومها القديم ... فهي لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن ولغة الادب في العصر الاموي . اما ما بعد ذلك فهو ليس من صلب اللغة العربيـة في شيء ... انه « محدث » لا يمت للغـة العربية بصلات قوية عميقة ، وهذا الاتجـاه يرفض الاعتراف الفكري والذوقي بالانتاج الفني والعقلي منذ ايام مسلم ابن الوليد وابي تمام والبحتري والمتنبي وابي العلاء حتى اليوم ... كلُّ هذا الانتـاج في نظر ذلك الاتجاه الفكري هو من « انتاج المحدثين » وهو غريب عن نصاعة اللغة العربية الخالصة التي لم تختلط بمؤثرات خارجية من هنا او من هناك ... امـا اللغة الناصعة .. اللغة الام ، فهي تلك التي كتبت بها المعلقات وكتب بها القرآن وكتبت بها النقائض ، وعلينا – في نظر هذا الاتجاه – ان نعود الى تقاليد هذه اللغة ومقاييس معاجمها المختلفة حتى تكون لغتنا سليمة اصيلة . وقد كان رائد هذا الاتجاه في مصر في مطلع القرن الحالي هو الازهر وبعض رجال الفكر فيه على وجه الخصوص ، وكان على رأسهم « الشيخ المرصفي » أحـد الاساتذة الاول للدكتور طه حسين وغيره من ادبائنـا المعاصرين الذين ارتبطوا في بداية حياتهم الدراسية بالازهر . ولا زال هذا الاتجـاه قائماً حتى اليوم ، وان كان قد طرأ عليـه بعض التغييرات الا انه في جوهره باق كما هو يدعو الى اللغة بمفهومها القديم ويعتمد في تدريسها على نماذجها التقليدية . وقد اتضح خطر هذا الاتجاه عندما سيطرت

« دار العلوم » على تدريس اللغة العربية في مصر لفترة طويلة فلم يكن من الممكن ان تهتم منـاهج الدراسة بنماذج الادب العربي الحديث ، ولا بالتطورات التي طرأت على اللغة العربيـة مثل اقترابهـا من اللغة العامية ، وتبسيطها للصياغـات القديمة المعقدة واتصالها ببعض اللغات الاوروبية واعتمادها على بعض مصطلحات تلك اللغات وخاصة بالنسبة للعلوم وألوان الثقافة الحديثة . كان ذلك هو الاتجاه الاول في فهم اللغة ، وقد كان — كما هو واضح — داعية تعقيد وتجميد في حياة اللغة . وكان سبباً من اسباب تعطيل الحركة الثقافية وتأجيل نموّها واتصالهـا بآفاق الحضارة الحديثة . وكان من الواضح ايضاً ان هذا الفهم للغة ، هو في الحقيقة فهم حضاري كامل ، يلتمس مثال حياتنـا الجديدة فيما حققه الماضي ، ويرى ان سعادتنا وتطورنا الصحيح لا يمكن لهما ان يتما ما لم تتجه الى الماضي بكلّ تقاليده وقيمه .

ولم يكن هذا الاتجاه — كما اشرنا الى ذلك — هو الذي يعمل وحده على مسرح الحياة ، بل انه كان يتصارع مع اتجاهين آخرين. وكانت الحياة — في حركة هذا الصراع — تبقى على ما هو جدير بالبقاء وتقاوم ما يعمل على التعطيل والجمود ... كان الاتجاه الثاني هو الذي يصدر عن فهم للحضـارة يعتمد على ايمان عميق بالغرب ورفض شامل لحضارة الشرق وتاريخه وضرورة ارتباطنـــا به . وعلى هذا الاساس اخذ هذا الاتجاه يعمل بعنف وحماس على انتزاع مصر من نسبتها الى الشرق في ايّ شيء . وقد كانت قمة الدعوة اللغوية لهذا الاتجاه هي المطالبة بتغيير الحروف العربية بالحروف

اللاتينية حيث ان هذا التغيير سوف يجعلنا اكثر ارتباطاً بثقافة الغرب ، ويخلصنا من التعقيدات اللغوية الموجودة في العربية مثل ظاهرة الاعراب ، وظاهرة التشكيل وغير ذلك من الظواهر الشائعة في العربية والتي تسبب ما هو ملاحظ على العربية من بطء في التعبير عن حاجات الحياة العصرية . وقد تزعّم هذا الاتجاه المرحوم عبد العزيز فهمي والاستاذ سلامه موسى ، وقدّم الاول اقتراحاً الى المجمع اللغوي بتغيير الحروف العربية بالحروف اللاتينية ودافع عنه وبرره ، ولكن هذا الاتجاه لم يتح له ان يجد انصاراً كثيرين حتى اليوم ، وان كانت الدعوة اليه صادرة عن « فلسفة » حضارية خاصّة لها انصارها الكثيرون في مصر والبلاد العربية الاخرى . وهذه الفلسفة الحضارية هي الايمان المتطرف بالغرب ، والاحساس بضرورة الاتصال الوثيق به والاعتماد على عناصر حضارته المختلفة كأساس لحضارتنا المنشودة .

بقي اتجاه ثالث كان يتنازع مع الاتجاهين السابقين السيطرة على حركة اللغة في واقع الحياة . وهذا الاتجاه هو الذي نشأ بصورة طبيعية كحلقة من حلقات التطور في حياتنا ... حلقة حتمية دعت اليها وساهمت في تنميتها بعض الظروف الجديدة التي نشأت في المجتمع المصري ، وفي اتجاهه الحضاري على وجه العموم . وكان من اهم هذه الظروف اتجاه الطبقات العامة من ابناء الشعب المصري الى الثقافة ، ورغبتها — التي نشأت بالضرورة والارادة معاً — في المعرفة . فمنذ اليوم الذي تطلع فيه الفلاح والعامل وابناؤهما الى المعرفة ... الى الثقافة ، منذ ذلك اليوم تعرّضت الافكار

النظرية للتجربة العملية الحاسمة التي كانت تؤدّي بها امّا الى الحياة او الى الموت ، ومنذ ذلك اليوم نشأت وسائل جديدة للثقافة...

ومن الافكار النظرية التي تعرضت للتجربة العمليـة : ذلك الفهم الثابت الجامد للحضارة العربية القديمة ومحاولة فرضها فرضاً حاسماً على حضارتنـا الجديدة ، لقد تيقن المجتمع من خلال التجربة بأن الثقافة العربية القديمة ليست كافية لخلق حضارة جديدة ، وانـه لا بد من الاتصال بثقافة الغرب . وقد اثبتت التجربة ان بعض القيم في هذه الثقافة الاخيرة قيم صالحة بل اصلح من قيم الثقـافة العربية القديمة ، ومن هنـا بدأ الناس يهتمون بالتعليم المدني بل وتأثر الازهر نفسه بهذه التجربة فحاول ان يقلـّد - ولكن ببطء شديد - بعض ما اخذت به الحياة من قيم ثقـافية جديدة ...

اما الوسائل الجديدة التي نشأت لنشر الثقافة استجابة لذلك الطموح النبيل الى المعرفة والذي يعلن عن نفسه باستمرار في واقع الحياة الشعبية ... اما هذه الوسائل الجديدة فقد كان اهمها الصحافة والكتاب المطبوع على نطاق واسع . كان من نتيجة هذه الوسائل الجديدة ان نشأ الاتجاه الثالث في فهم اللغة ، ذلك الاتجاه الذي تخلـّى عن كثير من القيم الشكلية القديمة وبدأ يعبر عن افكاره بعربية صحيحة ، ولكنها بسيطة خالية من التعقيدات القديمة . لقد غـيّر هذا الاتجـاه « اسلوب » الكتابة ، كما غـيّر « اسلوب » التفكير ، واراد ان يعـبّر عن مصر الجديدة في خطوة حاسمة من خطى تطورها ، خطوة لا تفصل مصر عن ارتباطها الحقيقي بالشرق وبالعروبة ولا تنكر اتصالها بالغرب وبثقافة الحضارة الغربيـة ،

خطوة لا تؤمن ايماناً اعمى بالماضي وقيمه ، ولا تؤمن ايماناً اعمى بالغرب وقيمه ، خطوة ترى في واقعنا مريضاً ينبغي ان يعالج ليعيش متوهج الصحة قوياً ، ولا ترى في هذا الواقع كائناً يجب ان يقتل ليحل محله كائن جديد تاريخه في المستقبل لان كائناً لا ماضي له ، لا تاريخ له .

هذا هو الاتجاه الحضاري الثالث الذي صدر عن فهم اللغة كوسيلة مبسطة صحيحة لاداء رسالة فكرية وحضارة تتركز في تنمية الواقع لا في القضاء عليه دفاعاً عن الماضي او دفاعاً عن المستقبل . ومن هنا نشأ الوعي الثقافي الجديد الذي تولد عن معركة هذا الاتجاه الاخير مع غيره من الاتجاهات . ونذكر في هذا المجال تلك المعركة التي دارت في الثلث الاول من هذا القرن بين مصطفى صادق الرافعي ومدرسته من جانب والعقاد وطه حسين وسلامه موسى من جانب آخر . لقد كانت هذه المعركة تتركز حول تحديد « وظيفة اللغة » ، وانتهت المعركة بانتصار المدرسة الاخيرة التي عملت بعمق على تبسيط اللغة وتطويعها وتوظيفها في خدمة الثقافة والفكر ومطالب الحياة باعتبارها وسيلة لا باعتبارها غاية في ذاتها ليس علينا الا ان ننحتها ونعقدها حتى تؤدي دورها.

فالمصريون والعرب اليوم يقرأون بهذه اللغة المبسطة الميسورة التي ادت اليها معارك عديدة قامت في مطلع هذا القرن ، وساعدت ظروف متعددة على انتصار هذه اللغة المبسطة والاعتماد عليها في ايصال كثير من القيم الثقافية الحضارية الى القارىء ... الى الانسان المصري العربي في مرحلته الجديدة .

من هذا العرض الموجز نرى ان معركة تبسيط اللغة العربية ليست معركة جديدة بل هي معركة لها تاريخها ونحن اليوم نعيش في انتصارات هذه المعركة، فلقد اصبح اسلوب الرافعي والمرصفي والزيات وغيرهم اسلوباً مرفوضاً، لانه لا يقدم لنا لوناً من الصياغة اللفظية الخاصة وحسب، بل لانه «اسلوب» خاص في فهم العالم والاشياء، «اسلوب» يعبر عن منهج خاص في الحياة، وطريقة خاصة في الادراك، وهو اسلوب مرفوض لان فلسفته مرفوضة، فالحياة الجديدة في حضارتنا انما تسعى إلى اهداف عميقة وتعتمد على اللغة كوسيلة من وسائل تحقيق هذه الاهداف، فاللغة وسيلة للاداء لا اداء في ذاته، والكاتب الذي تشيع كتابته ويقبل عليها الناس يلتمسون منها مفاهيم جديدة وقيماً جديدة، انما هو الكاتب العميق الذي يدرك وظيفة بعيدة للفكر، ويقدم مضامين جديدة مدروسة مستنيرة فيما يكتب. كما يقل الاقبال على الثقافة القديمة كمثال نموذجي لثقافة العصر، فالاقبال المستنير على الثقافة القديمة انما يكون بهدف دراستها وتقييمها والوصول الى استنتاجات وفروض صالحة لفهم حركة الحياة في الماضي، وكذلك بدأت اللغة تتسع لاداء الثقافة العلمية في صورها المختلفة، ولا تنتظر اللغة قرارات او قوانين من المجمع او الجامعة، بل انها في الحياة اسبق منها في المجالات الرسمية، ولم تعد القيم القديمة المتصلة بقداسة اللغة ذات اثر فعال، فليس هناك من عداء بين العامية والفصحى بل هما اليوم وسيلتان متآزرتان من وسائل التفكير.

هذه اشياء يقودنا اليها التفكير في محاولة الدكتور طه حسين..

انها اشياء كثيرة تتلخص في ان معركة اللغة معركة قديمة ، وان نتائجها الطيبة مستمرة مع استمرار حركة الحياة ونموّ مطالبها واحتياجاتها ، وانها ليست معركة شكلية بل معركة قوية تتصل بالاسس الفكرية والحضارية لا بالنسبة للغة وحسب بل وبالنسبة للحضارة المصرية العربية كلها ... ان اللغة تتطور حتمياً كلما تطوّر الانسان ، وتطور الشكل هو اهون الامور واقلها احتياجاً الى الضجة والصراع ، ومن شأن محاولة الدكتور طه حسين ان تثير هذا اللون الاخير من الصراع الشكلي في سبيل تغييرات لا خطر لها ، فالصراع في جوهره قائم حول الاسلوب.. حول « الفلسفة » التي تدفع اللغة وتحركها : عم يعبر الكاتب ؟ الى اي شيء يهدف الاداء الشعري ؟ ما الفرق بين دور الصياغة في الفكر والادب في الحضارة القديمة ، ودورها في الفكر والادب في الحضارة العصرية ؟

ان الضرورات الاملائية الموجودة في اللغة العربية ليست ذات خطر . وهناك في كلّ لغة من لغات العالم ما يشبهها او يزيد عليها، وليست هذه الضرورة عقبة في شيء .. ليست عقبة بين الثقافة وبين الانتشار كما يقول الاستاذ رشدي صالح ، بل ان شروط الحياة الاجتماعية والاقتصادية هي جوهر العقبة في سبيل انتشار الثقافة ونموها ، وتغيير هذه الشروط هو الضمان الحاسم في عملية نشر الثقافة وتقدمها بخطوات واسعة ذات اثر فعال في حضارتنا الانسانية الجديدة .

بعد المعركة

وقف المجتمع المصري في طليعة عـــام ١٩٥٧ معبأ القوى والمشاعر بشكل واضح قوي ، فلقد كان العـام الماضي مليئاً بالتجارب الحاسمة والاحداث الرئيسية ، ولم تكن هذه التجارب والاحداث قاصرة على فئة معينة من فئـات المجتمع ، بل كانت شاملة عامة بصورة واضحة لم يسبق لهـــا مثيل ، ولم يكن هذا الشمول قاصراً على التقريب والتوحيد بين فئات المجتمع وحسب، بل امتد الى القوى التي تعمل في حياة المجتمع ، ومن ابرزها قوتان مناضلتان هما: الفكر والعمل، لقد تقاربت هاتان القوتان الى درجة التوحد ، وكان اكبر مظهر لهذا التقارب ما كان واضحاً اثنـاء المعركة من ان الشباب الجامعي كان في طليعة المشتركين اشتراكاً فعلياً في الدفاع عن وطنهم وتاريخهم ضد عدو ظالم مغامر .

خرج المجتمع موحداً بفئاته وقواه المتعددة من تجاربه الحاسمة التي بدأت على صورتها الواضحة القوية منذ اعلان تأميم شركة قنال السويس في يوليو سنة ١٩٥٦ ، منذ ذلك اليوم والمجتمع كله يحس بانه يواجه مصائره الكبرى في صراحـة ووضوح ، فما كان لجرح ان يختفي بين ركام المغالطة والاهمال ، ولا كان لعدو ان يلبس ثياب الاصدقاء فنلقاه بالترحيب والود ونخفي احساسنا به وبمـا ينوي ان يثيره في حياتنـا من مصاعب ، ولا كان لصديق ان يمد يده في سلام فنرفضها خشية اوهام طالما اقلقتنا وملأت حياتنا بالخوف والتردد .

وعندما نحدد نقطة الانطلاق التي بدأ منها المجتمع المصري في مرحلته الاخيرة ، نستطيع ان نحدد وظيفـــة التعبئة الشعورية والفكرية والعملية ، هذه التعبئة التي تمثل الحالة التي يواجه بهـا مجتمعنا الحياة في طليعة العـام الجديد ، وفي مثل هذه المرحلة التي نمر بها وامام هذه التجارب التي نعيشها ، يصبح من المستحيل بل والخطأ ان نعمل على تتبع الحركة الثقافية في معزل عن الحركات الرئيسية الاخرى التي تتفاعل بها الحياة ، فالموقف الذي نقفه اليوم على مسرح التاريخ هو موقف الاستعداد والتهيؤ للانتقـال من مرحلة حضـارية الى مرحلة اخرى جديدة ، ونحن نستعين بكل قوانا ومن بينها الثقافة لكي تساهم في اتمـام هذه النقلة الضرورية الحاسمة ، وليس هناك من هدف آخر غير قضيتنا الرئيسية ، كل شيء مرتبط بها منظور اليه من زاويتها . وعندما يتم لنا الانتقال الى مرحلتنا الحضارية الجديدة ونستقر على شاطئها العاري الواعد

الذي يتطلب التحديد والامتلاء ، نستطيع يومها ان نتحدث عن الثقافة او غيرها من قوى الحياة بانفصال وتخصص نسبي . فالوظيفة الرئيسية لهذه الدراسة السريعة هي تحديد المنابع الرئيسية والجديدة التي تستمد منها عمليات حياتنا امتدادها واستمرارها ، والثقافة من بين هذه العمليات . ونحن نعني على وجه الخصوص تلك المنابع التي اتضحت خلال العام الماضي ، فالسؤال الآن هو: من اين بدأ المجتمع المصري حركته الاخيرة .. من اي نقطة في الشعور والوعي والحضارة ؟ وعلى ضوء الاجابة يمكننا ان نوضح لانفسنا دعائم الجديد الذي نعمل على بنائه وننشد الحياة في ظلاله ، وعلى الفور نستطيع ان نقول ان حركتنا الجديدة في الحياة تبتدىء من تخلفنا الحضاري الشامل وشعورنا بهذا التخلف . لقد كانت الثورات التي قامت في مصر منذ ايام عرابي في اواخر القرن الماضي الى اليوم تبتدىء من نفس البداية ، كانت هذه الثورات تنبعث من الاحساس بضرورة تغيير الحياة وضرورة اقامة بناء جديد للمجتمع يتلاءم مع مصالح غالبية ابنائه لا مع المصالح غير المشروعة لفئات قليلة في هذا المجتمع او لقوى دخيلة عليه . وكانت الثورات السابقة لموقفنا الراهن تصطدم في موجاتها الاولى بعقبة عنيدة عنيفة هي الاستعمار والمصالح الناشئة حوله والتي تحتمي به ، وكانت القوى غير متكافئة وبخاصة في المستوى المادي ، ولذلك ارتطمت ثورة عرابي بتلك العقبة الكبرى وانتهى بها الامر الى الفشل في تحقيق ما قامت من اجله ، ودخول الانجليز مصر سنة ١٨٨٢ . وعلى نفس العقبة الهائلة صفيت ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٣٠

وثورة ١٩٤٦ . وتتفاوت هذه الثورات في قيمتها التاريخية بالطبع ، ولكنها تتفق كلها في ان نتائجها كانت اقل من طموح الشعب الذي بذل فيها الدم والجهد ، كانت كل هذه الثورات ترتطم بالاستعمار واتباعه ، ومن هنا اتسمت بصفة رئيسية مشتركة هي انها لم تكن ثورات شاملة ترسم خططاً لبناء المجتمع وتقدم مفاهيم جديدة للحياة في الفكر والعمل والعلاقات الاجتماعية بل كانت كلها قاصرة على جانب واحد هو مقاومة الاستعمار العسكري وما ينتج عنه ويسانده من قوى مباشرة في الداخل .

من هذه المقارنة السريعة نستنتج ان شعورنا بالتخلف هو شعور عريق منذ مطالع هذا القرن وقبله ، وقد كان هو الدافع الاساسي للثورات المختلفة التي قامت منذ عرابي حتى اليوم . ولكن الواضح هو ان الثورات السابقة لم يتح لها ان تفكر تفكيراً شاملاً في تنظيم المجتمع تنظيماً يساعده على التطور والتغلب على تخلفه وتأخره . فما كان اشبه هذه الثورات بصاحب البيت الذي يعمل على اخراج ساكن متسلط معتد من بيته ، ويشغله هذا الساكن عن التفكير في تنظيم حجرات البيت لخلق الاستقرار والهدوء والاستثمار الخاص لامكانيات البيت الحقيقي المنشود .

اما حركتنا الجديدة فقد بدأت بداية شاملة بعد ان ساهمت الموجات الثورية السابقة في تصفية الاستعمار العسكري والقضاء عليه . لقد اخذت القوى الاجتماعية المتفرقة تتآزر وتتركز في سبيل العمل على خلق الحركة الجديدة الشاملة التي تعنى بفهم الحياة فهماً عاماً لا فهماً جانبياً يتركز في اتجاه واحد . ومن الواجب ان نشير هنا

إلى نقطة هامة لا يمكن دراستها الآن دراسة كاملة ولا يمكن اغفالها كذلك ، تلك هي ان العلاقة بين الحكومة القائمة في مصر وبين الشعب لم تسر في اتجاه واحد منذ اللحظة الاولى ، فقد كان هناك في البداية تأييد شامل ، تبعه نفور وتردد انتهى الى التقاء واضح وتعاون سليم ، واهمية هذه النقطة تتركز في انها تبرز ان الاتجاه الثوري الشامل في فهم الحياة وتغيير المجتمع والذي يطبع النظام القائم في مصر ليس وليد طرف واحد هو الحكومة ، بل هو في حقيقته وليد الالتقاء الشامل بين الحكومة والشعب الى حد بعيد ، ذلك الالتقاء الذي تم عن طريق احتضان الحكومة لاهداف الشعب .. من هنا نتبين ان في مصر الآن محاولة ثورية شاملة صنعها الشعب وسهرت على خدمتها وتطويرها حكومة اخلصت في التجارب التي خاضتها لما يطلبه الشعب ويهدف الى تحقيقه .

في هذه الثورة الجديدة التي نعيش فيها ابتدأنا نواجه مشكلتنا كشعب متخلف ، ولكن ثورتنا الجديدة اختلفت عن الثورات السابقة في انها كانت ثورة شاملة لشتى الاسس والاتجاهات في بناء المجتمع اذ لم تتحدد اهدافها بالقضاء على الاستعمار بل شملت تلك الاهداف محاولة تغيير حضارتنا من الناحية المادية والفكرية بشكل اساسي يتيح لنا الوصول الى نمط جديد سليم من الحياة .

فنحن شعب يمارس الحياة في ظروف قاسية مهينة ، ولا يمكن لهذا الشعب ان ينتظر مستقبلا مغايراً لحاضره اذا ما ظلت هذه الظروف العنيفة مسيطرة على قواه المختلفة مقيدة لامكانياته البشرية

تقييداً مدمراً .. من هذه النقطة تبدأ ثورتنا الجديدة ، وعلى ضوء تلك الحقيقة تقرر هذه الثورة عدداً من المبادىء الاساسية التي كشفت الممارسة التجريبية عن خطرها واهميتها كمنابع تستمد منها قوى الحياة - من فكر وعمل - كل وجودها .

هل نحن شعب متخلف بطبيعته ؟

هذا هو السؤال الذي كان على ثورتنا الجديدة ان تجيب عليه بعد ان قررت مواجهة المصير الذي تعيشه ، وهو التخلف والتأخر في صراحة ، ولا بد ان تحدد الاجابة عن هذا السؤال اشياء هامة فيما يتصل باسلوب التغيير والبناء الذي يتطلبه حقيقة وضعنا المتخلف الراهن . كما ان هذا السؤال ينتج بشكل طبيعي عن الخطر الذي أشاعه اعداؤنا في صفوفنا .. خطر انعدام الثقة اللازمة بالذات ، واذا كانت هذه الثقة لازمة للذات الفردية ، فان ضرورتها تتضاعف بدرجات كبيرة بالنسبة للوجود الجماعي ، فان انعدام ثقة الجماعة بنفسها يمثل خطراً اساسياً يهددها بالانقراض والتلاشي والعدم . وليس لنا ان نجيب على هذا السؤال اجابة مفتعلة ، فان افتعال حقيقة في صالحنا لهو اخطر بكثير من وجود حقيقة فعلية ضدنا .. وكانت اجابة ثورتنا الجديدة على هذا السؤال هي اننا لسنا متخلفين بطبيعتنا ، واعتمدت هذه الاجابة على اسس رئيسية هامة من اولها ما قام به علماء الانسانية من مناقشة معروفة لقضية تفوق الاجناس والسلالات وما وصل اليه هؤلاء العلماء من ان الانسان انما يدفعه الى التقدم والتفوق ظروف بعضها من صنعه وبعضها الآخر من صنع الطبيعة او غيرها من القوى ، ومن هذه

الادلة ما قدمته تجارب الحياة العصرية ممثلا في بعض الشعوب التي كانت مغرقة في التخلف ، واصبحت الآن في الصفوف الاولى من حضارة الانسان ، وعلى رأس هذه الشعوب : الهنود الصينيون .
ومن هذه الادلة ايضاً تاريخنا ، فلم يكن المصريون او غيرهم من العرب بذوى الجهد المغمور في تاريخ البشرية : لقد كان جهدهم بارزاً واضحاً حتى لقد كانوا ذات يوم طليعـــة الامم والشعوب والحضارات . اما امكانياتنا المادية فهي ثروة واضحة معروفـة .
اذن فنحن متخلفون حقــاً ، ولكن هذا التخلف ليس عنصراً جوهرياً لا يمكن تغييره من طبيعتنا ، ولكنها ظروف فرضت علينا حيناً من الزمن واستسلمنا لها مرغمين في كثير من الاحيان ، ونحن اليوم نريد ان نعيها ونغيرها ونمنع الغرباء من ان يفرضوها علينا لمصالحهم ، ولذلك الجـــانب غير الانساني من هذه المصالح والذي لا يراعي اي مبادىء او قيم .

وبدأنا نعي ، وعرفنا ان الاستعمار يقيد شخصيتنا ، يريدهـا ان تظل تابعة ذليلة ، لا تعرف قيمتها في التاريخ فتستمد من هذه القيمة ثقة ووعياً ، ولا تعرف امكانياتها في الحاضر ، فتظل كل قواها موجهة لخدمة المستعمر وشركاته ومصالحه الكبرى ، وكان لا بد في مواجهة هذه المشكلة من اختيار احد طريقين : اما ان ننحرف في التماس حلول يرتضيها المستعمر وتحفظ له مصالحه غير المشروعة او ان نواجه هذا المستعمر مواجهة صريحة نتحمل فيهـا اعباء حقيقية هي الثمن الذي ينبغي ان ندفعه لـكي نصل الى شخصية قادرة ذات ارادة .

واختار الشعب منذ البدء الطريق الثاني ودخل مع الاستعمار في معارك متعددة كان اروعهـا تلك المعركة الاخيرة التي دارت على ارض مصر ، ففي هذه المعركة كشف المستعمر بوضوح عن خططه ووقفنا نحن مصممين على ان ننتهي من عقبة الاستعمار التي تعمل على تعطيل كل حركه في الفكر والحياة ، تعمل على تجميد شخصيتنا ووضعها في اسوأ الظروف حتى تذبل وتتلاشى .

ولم نكن نواجه فحسب عدوانـاً عسكرياً بل كنا نكتشف ايضاً بعض القيم الكبرى التي ينبغي ان تعتمد عليها دعائم حياتنا الجديدة . ففي جانب القيمة الاولى وهي ضرورة الاستقلال مهما كان ثمن ذلك من الدم والجهد وضرورة الشك في القوى التي يعتمد عليها الاستعمار شكاً شاملا.. الى جانب هذا الموقف من الاستعمار كانت هناك قيمة اخرى تبلورت في فكرة القومية العربية ، هذه الفكرة التي خرجت من التجربة الاخيرة وقد تضاعفت قوتهـا وازدادت وضوحاً واصالة ، انها حقاً لم تزل فكرة تعترضها كثير من العقبات ، ولكنها اكتسبت في التجربة الأخيرة عناصر تمكنها من مواجهة تلك العقبات بصلابة وشمول ، على ان الذي نريد ان نشير اليه هو ان القومية العربية بناء تقيمه ارادتنـا معتمدة على البذور الموجودة في الواقع. وليست هذه الفكرة الكبيرة فكرة تلقائية يمكن ان تولد بلا صراع او جهد ، فلقد استطاع الاستعمار ان ينشر فلسفة العزلة في بعض البيئات العربية ، ونذكر منها ما يخص مشكلات العلاقة بين مصر والسودان ، وما يريد المستعمر ان يخلقه الآن في اليمن والمحميات من تأكيد لتجزئة خاطئة وخلق

لتجزئات جديدة مفتعلة . ولا شك ان لفلسفة العزلة هذه تاريخاً طويلا في وطننا العربي ، ولها نتائجها الايجابية العديدة مما يؤكد ان ارتباط القومية العربية بعامل الارادة هو ارتباط قوي ؛ فلا بد ان تبذل جهود ارادية للتوحيد في شتى المجالات وفي نفس الوقت.. في الثقافة والسياسة والاقتصاد، على ان تعي هذه الجهود الارادية انها مواجهة بجهود ارادية اخرى للقضاء على فكرة القومية العربية. ومن ابرز نتائج هذه الجهود المعادية : اسرائيل، انها الخطر المباشر الذي يعمل للقضاء على شخصيتنا العربية ويطالبنا بمزيد من الاتحاد والتماسك وابراز خصائصنا المشتركة وتنميتها بحيث تستعصي على الفناء والضياع ، بل وحتى تستطيع ان تكون العامل الرئيسي في توجيه مستقبل اسرائيل نفسها .. اذن ففكرة القومية العربية التي سوف نخلقها بارادتنا وجهدنا معتمدين على البذور الموجودة بالفعل، هذه الفكرة هي دون شك من الافكار التي ابرزتها التجربة الاخيرة وعمقتها كعنصر اساسي وعامل فعال في خلق شخصيتنا الجديدة القوية القادرة على ان تعيش حياتها ، وتتحمل مسؤولية وجودها ، وتتغلب على الاخطار التي تواجهها .. وبتعبير آخر تستطيع ان تملأ « الفراغ » الذي وجد عندما اضطر الاستعمار ان ينسحب بعيداً من مسرح حياتنا بعد ان ظل يضغط على شخصيتنا زمناً طويلا جعل منا غرباء في ارضنا لا نستطيع ان نستفيد من امكانيات عالمنا في الطبيعة والانسان .. تلك الامكانيات التي يعتمد عليها في كثير من مؤسساته ومظاهر حضارته .

نستطيع اذن ان نجمل النتائج الرئيسية للمعركة في اننا قد

بدأنا نعي تخلفنا ونعرف اسبابه الحقيقية ، وان الاستعمار يحاربنا في قوتنا ومساكننا ومشاعرنا وافكارنا ، بل وفي ابسط مصائرنا ، وان المسألة ليست مسألة احتلال عسكري للارض بل هي أبعد من ذلك الى مدى واسع ، وانه لا بد من مواجهة هذه الظاهرة القاتلة ، ظاهرة الاستعمار ، مواجهة صريحة عنيفة مهما تحملنا من مشقة وجهد ، اذ اننا لن نستطيع ان نخطو خطوة ما ونحن في قبضة الاستعمار بمظاهره وأساليبه المعقدة . وان القومية العربية فكرة لها بذور حقيقية زادتها المعركة وضوحاً ويقيناً ، وأن هذه الفكرة تحتاج الى الجهد الارادي لكن تحقق نتائجها المنشودة . فالقومية ظاهرة اجتماعية ينميها الجهد والعمل ويقضي عليها التراخي والخطأ في الفهم والادراك . ان القومية العربية ظاهرة يمكن ان تتلاشى لو استسلمنا للجهود الخطرة التي تبذل في سبيل القضاء عليها وانقراضها وعلى رأس هذه الجهود تلك النزعة اللا إنسانية التي تتمثل في اسرائيل .

هذه النتائج هي القيم والمبادىء الاساسية التي تتحرك حياتنا على اسسها في شتى الاتجاهات ، وعلى رأسها الاتجاه الثقافي ، وهي قيم ومبادىء استقرت في الوعي اكثر من استقرارها في الواقع ، بل ان استقرارهـــا الواقعي لا زال في حاجة الى جهود كبيرة متواصلة ، فعلى مدار هذا الاستقرار سوف تتأثر الاتجاهات الحيوية المختلفة ، فليس هناك من تغييرات اساسية في حياتنـــا الثقافية والاقتصادية او غير ذلك . فهذا التغيير مرهون باستقرار المبادىء الاساسية الاولى له.. وهي تلك المبادىء التي تحدثنا عنها و كشفت

لنا المعركة عن عناصرها وقواها المختلفة .. لا زال المجتمع المصري يعاني الفقر الشامل ، ولا زالت الثقافة المصرية تتفوق في ظواهرها الجزئية الفردية دون ان يكون هذا التفوق مظهراً عاماً بالنسبة لوعي الشعب والجماهير . وحسبنا ان نشير الى ظاهرة انتشار الامية التي ما زالت تشيع بين نسبة كبيرة من ابناء مصر . وما زالت المناهج التربوية في المدارس والجامعات مضطربة غير مستقرة على اسس نهائية . وما زال الاضطراب النفسي والقلق يمزق اوساط المثقفين من الشباب حيث يعيشون حياة ليست متناسقة كتلك الافكار والمفاهيم التي بدأ وعيهم يعتمد عليها . وما زال الارتباط بين الفكر والعمل قضية ليست ذات نتائج ايجابية في حياتنا العامة ، وان كانت الافكار التي تشيع الآن في الحياة الثقافية هي اقرب الافكار الى العمل والواقع ، على عكس تلك الافكار التي شاعت في الماضي وما زالت تشيع في بعض البيئات والتي كانت نظرية مغرقة في البعد عن الواقع الانساني ، معتمدة على خيال لا يرتكز على منطق او ضابط . كل هذه الظواهر في حياتنا الثقافية موجودة بوضوح ، فالمعركة لم تمتد بعد الى الواقع ليتم فيه التغيير والتجديد . لقد غيرت هذه المعركة « خريطة » الواقع و « تخطيطه » النظري ، وعلى مثال « الخريطة » او « التخطيط » سوف يبدأ التغيير والتعديل في الواقع ، والمرحلة الجديدة من التغيير ليست مرحلة هينة ، بل هي في حاجة الى جهد كبير وزمن طويل ، وليس من الطبيعي ان ننتظر النتائج المنشودة في سرعة وبلا تضحيات . فلسوف تتم هذه النتائج بتضحيات قاسية وفي صبر طويل وبعد

زمن لا يقل عن ذلك الزمن الذي نضج فيه « التخطيط »، والذي بدأ بالنسبة لنا - في مرحلتنا الاخيرة - منذ ايام عرابي وكلفنا الكثير من الدم والضحايا الغالية العزيزة .

هناك بعض الظواهر الفكرية التي لا بد ان نشير اليها والتي برزت كخطوط واضحة في حركتنا الثقافية في الفترة الأخيرة . وليست هذه الظواهر هي التغيرات الجذرية التي ننشدها بل هي ظواهر جزئية لا تخلو من الدلالة والتبشير بواقعنا الجديد . من اهم هذه الظواهر ان الكتّاب - المخلصين وغير المخلصين - قد اخذوا يوجهون افكارهم تجاه حياتنا ، فيدرسونها ويتتبعون ظواهرها بأساليبهم الخاصة ، وقد اصبحت هذه الظاهرة عامة الى حد بعيد ، ونستطيع ان نقدر خطرها عندما نعلم ان المفكر في مصر ، وفي مراحل سابقة - من حركتنا الثقافية كان يبذل جهوده في دراسة مشاكل في الغرب او في الشرق دون ان يعنى بزاوية ارتباطها بنا ، او فائدتها لنا .

ومن هذه الظواهر ان بعض المؤسسات التي كانت تعمل على عرقلة حركتنا الثقافية وتسميمها بعناصر غريبة قاتلة ، قد سقطت على التقريب في محيط من تجاهل الجماهير القارئة ورفضها ، وعلى رأس هذه المؤسسات مؤسسة فرانكلين . فقد انحسرت موجة هذه المؤسسة بشكل واضح بعد ان قامت بحركة مزعجة ضد ثقافتنا وحياتنا لفترة طويلة (١)

(١) تبذل هذه المؤسسة جهوداً غريبة لمحاولة البقاء والاستمرار ، وتأخذ محاولاتها صوراً متعددة مثل الاشتراك في شروع الالف كتاب ، او التستر باسماء بعض الكتاب ومن أبرزهم في الفترة الاخيرة : ماهر نسيم .

كذلك ظهر في الصحافة اليومية اسلوب جديد يحاول ان يستقر ويتأصل ، ذلك هو اسلوب الدراسة الجدية للمشاكل على عكس الفكرة التي اشاعها البعض عن ضرورة التبسط والسطحية والطرافة في العمل ، ويحمل لواء هذا التيـــار الجديد في الصحافة جريدة ناشئة ولدت في احضان المعركة هي جريدة « المساء » .

استطاعت المعركة كذلك ان توجه حركة الترجمة الى دراسة أهم موضوعين بالنسبة لنا، اولها : الاستعمار ، وثانيهما : امكانياتنا المادية والنفسية . وقد كانت الترجمة قبل ذلك لوناً من الاختيـار الفردي الذي لا يعتمد على اي توجيه ينبعث من ظروف المجتمع. ومثل هذه الظواهر الجزئية في الحياة الثقافية تحمل البذور الاولى لتغيير اساسي حاسم في مفاهيم المجتمع وافكاره بين شتى الفئـات الاجتماعية ، كما تعد بظهور أساليب جديدة في تنظيم المجتمع وبنائه بحيث يتلاءم مع المسؤوليات الكبرى التي ينبغي عليه ان يحملها حتى يستطيع الانسان ان يحس بقيمته الانسانية على صورة أصح واكثر توهجاً .

لم تكن المعركة الاخيرة سهلة ، ولن تكون المعارك القادمة خالية من التضحيات الغالية والمصاعب الكبيرة ، فلقد بدأنا نحمل عبئاً هائلا في سبيل تغيير الحياة التي نعاني مرارة تخلفها والاحساس الدائم بالاخطار التي تحيط بها وتهددها على الدوام .. ومـا اطول الطريق الجديد وما اعظمه من آن .

ثقافتنا بين جيلين

كتب الدكتور علي الراعي بجريدة « المساء » في فبراير سنة ١٩٥٧ مقالا عنيفاً عالج فيه قضية الانتاج الجديد للشباب . ويرى الدكتور الناقد في مقاله ان ادباء الشباب يتحدثون عن الادب الجديد اكثر مما ينتجون هذا الأدب ، وان من الضروري لتقدم ادبنا ان يخرج الشباب من دور الحديث الطويل عن الجديد الى دور ابداع هذا الجديد وخلقه .

وفي جريدة « الشعب » كتب الدكتور لويس عوض مقالا يعبر فيه هو ايضاً عن افتقاده للحيوية في عالمنا الادبي ، تلك الحيوية التي كانت تطبع الجمهور والكتاب منذ ثلاثين سنة . في مصر كان العقاد يكتب مطالعات في الكتب والحيـــاة على غاية من الغنى والخصب ، وكان الجمهور والقـارىء يفتح قلبه لافكار العقاد عن

داروين وعن الطبيعة الانسانية وغير ذلك من الموضوعات العميقة الهامة . وكان طه حسين يكتب عن الثقافة العربية القديمة ويناقش قضايا الشعر الجاهلي والشعر الاسلامي ، فكان الجمهور القارىء ايضاً يفتح قلبه لهذه الدراسات العصرية عن الادب العربي القديم والثقافة العربية القديمة . اما اليوم فالكتابة العميقة الجادة كما يرى الدكتور لويس قد تضاءلت وانحصرت سيطرتها على مناطق قليلة.

ظاهرة واحدة ، اتفق الناقدان على وجودها وان اختلف اسلوبهما في التعبير عنها .

والظاهرة التي احس بها الناقدان تحتاج الى مراجعة ومناقشة . والنقطة التي نحب ان نعرض لها هنا ، هي العلاقة بين الظروف التي نشأت فيها الحركة الادبيه عندنا بعد الحرب العالمية الاولى ، والظروف التي تسيطر على حركتنا الادبية الجديدة . كان المجتمع المصري يعيش في استقرار موهوم في الوقت الذي قامت فيه الحركة الادبية الاولى ، وكان هذا الاستقرار يعتمد على دعائم هامة ، فقد كان في مصر استعمار انجليزي مباشر يحكم مصر ويدير سياستها بالضغط والعنف ، وكان حول هذا الاستعمار قوتان تشتركان مع الاستعمار في بعض المصالح الرئيسية وتختلفان معه احياناً . هاتان القوتان هما : السراي ، والاقطاعيون . كان هناك اذن اربع قوى تعمل على مسرح المجتمع : الاستعمار ، والسراي ، والاقطاعيون في جانب ، والشعب بقياداته المختلفة في جانب آخر . وكانت القوى الثلاث الاولى تشترك في محاولة استغلال الشعب والضغط عليه ، وكان العنصر الرئيسي الذي يتكون منه

الشعب هو عنصر الفلاحين ، وفئة قليلة من العمال تعيش في المدن حيث مصانع الدخان ومخازن السكك الحديدية .

في هذه المرحلة كانت قوة الشعب مطموسة مضغوطـة ، وان لم تكف عن الظهور والتعبير عن نفسها في فترات متفاوتة، ولكن الظـاهرة الرئيسية هي ان الصراع بين الشعب والقوى الاخرى كان ينتهي بخفـوت الحركة الشعبية وسكونها وسيطرة القوى الاخرى وتمكنها من البقاء والصمود . وفي مثل هذه الظروف كان يلوح ان المجتمع ساكن مستقر، فالفلاحون يعملون في صبر وصمود، ولا دخل لهم على الاطلاق بمصائر حياتهم التي يتصرف فيها المستعمر والسراي والاقطاعيون ، وان لم يخل مسرح الحياة من قيادات وطنية كانت تعبر باستمرار عن مطـــالب عامة للشعب كالحرية والدستور والثقافة . وهكذا توفر للحياة استقرار وهمي نتج عن اضطرار الشعب الى ان يكون قوة غير فعـالة في مصائره . كان قوة سلبية ساكنة تُحدد لها الاهداف وانماط الحياة المختلفة ، دون ان تتحرك هي لتنتزع حقوقها ومطالبها بعد ان تحددها بما يتلاءم مع ما تحتاج اليه في التطور والتقدم .

لا نبالغ اذا ما قلنا ان هذا الاستقرار الوهمي النـاتج عن سلبية الشعب وقلة فاعليته في امور المجتمع قـد استمر حتى قبيل سنة ١٩٥٠ ، حيث بدأت معركة جديدة واضحة عنيفة بين الشعب من جانب ، والاستعمار والسراي والاقطـاع من جانب آخر . وكانت بداية المعركة تتمثل في فوز الحكومة الوفدية في الانتخابات ومـا أتاحته من تنظيمات ديموقراطية نسبية كان لها أبعد الاثر

في التمهيد للتطورات الحاسمة التي جرت بعد ذلك . كان هذا الاستقرار الموهوم الذي اتيح للمجتمع المصري طيلة تلك الفترة التي استغرقت نصف قرن على التقريب ، هي التي منحت الادب والثقافة في ذلك الحين لوناً من العزلة عن التأثرات الاجتماعية العنيفة التي تواجه ادبنا اليوم .

لقد كانت الفكرة التي زاد فيها انتاجنا الادبي في مرحلة هذا الاستقرار الموهوم هي فكرة تقليد الغرب وخلق حضارة لها من القوة قدر ما لتلك الحضارة الاوروبية من القوة .

كان طه حسين يفتش عن منابع قوتنا الجديدة في الثقافة العربية القديمة وفي بعض مظاهر الثقافة الاوروبية الحديثة . وكان العقاد يناقش نفس القضايا التي يناقشها ادباء الغرب ، ويتحدث عن ادبنا وحضارتنا بنفس الاساليب التي يفكر بها ادباء الغرب في مشاكلهم ، وكان قاسم أمين يدعو الى تحرر المرأة حتى تصبح مثل المرأة الغربية ، وكان محمد حسين هيكل يكتب قصة « زينب » لان ادبنا العربي ينقصه هذا الشكل القصصي الذي يتوفر لادب الغرب . وحين يقدم توفيق الحكيم مسرحية « اهل الكهف » الى النقاد والقراء ، يهتف طه حسين من قلبه : ان هذا شيء جديد على ادبنا .. المسرحية .. الفن المسرحي .. لقد استطعنا ان نحصل بأهل الكهف على شكل جديد من اشكال الفن ، لم يكن لنا به علاقة في ماضينا قط . ويصفق النقاد كلهم للشكل الفني ويرحبون به لعلنا نصبح عن طريقه اقرب الى مظاهر الحضارة الغربية من وضعنا القديم . ولقد ظهرت « اهل الكهف » في فترة حكم صدقي

(١٩٣٠ - ١٩٣٣) ، وكان ضغط هذا الحاكم المستبد متجهاً في اقصى صوره ضد الفلاحين والموظفين والمثقفين من الشباب ، ومع ذلك كانت الفكرة الشائعة هي ان الادب يسير في خط مستقل عن الاحداث السياسية والاجتماعية ، وان مهمة الادباء هي خلق طبقة واعية من المثقفين ينتجون ادباً وفناً يشبه تلك الاشكال الفكرية الشائعة عند الغربيين ، ولا علاقة للأديب بالسياسة ، واذا وجدت هذه العلاقة بين اديب وحركة سياسية فهي علاقة « شخصية » لا علاقة « فكرية » ، او هي علاقة مصلحة ذاتية لا علاقة مصلحة عامة يؤمن بها المفكر ويدعو اليها من خلال الهيئة السياسية التي يرتبط بها .

كانت الثقافة اذن تياراً منفصلاً عن التأثر بتيارات الحياة الاخرى ، كانت تعبيراً عن طموح الطبقات المستنيرة المثقفة في خلق « شخصية مصرية » ناضجة لها قيمتها في العالم إزاء تلك الحضارة القوية : حضارة الغرب . ولم يكن في هذا الهدف ما يصطدم بالسراي ، ولم يكن فيه ما يصطدم بالسادة الاقطاعيين واخيراً لم يكن فيه ما يصطدم اصطداماً مباشراً بالاستعمار . فقد كانت السراي تريد لمصر ان تكون وطناً يلبس احسن الازياء : شوارع جميلة في المدينة ، وجامعات ، ومسارح ، وكتاب كبار ، وكان سادة الاقطاعيين يطلبون وجود شخصية مصرية تنافس الشخصية التي ابرزتها بعض الاسر التركية الموجودة في قلب مصر ، كان مفكرو الاقطاعيين يريدون لمصر شخصية ظافرة لا يتعالى عليها الاتراك ، وقد ساهم الاقطاعيون لهذا السبب في خلق بعض مظاهر

التقدم كالجامعة والصحافة والمستشفيات العامة . اما الانجليز فقد كانوا لا يشعرون بخطر التقدم الثقافي الذي يسير في طريق لا يمكس الاهداف المباشرة للقوة السلبية المخيفة في نفس الوقت : قوة الشعب ، ومن هنا أمنت الحركة الثقافية من ضغط القوى المعادية للشعب ، ووجدت جمهوراً ناشئاً من المتعلمين الذين يطمحون الى المعرفة والثقافة ، وكان على رأس هذا الجمهور طبقة من المعلمين الإلزاميين الذين وكلت اليهم اخطر حركة تعليمية في مطالع هذا القرن ، وهي محاربة الامية والتمهيد لنشر التعليم والثقافة في المجتمع . أضف الى هذا كله عوامل جانبية اخرى لم تكن قليلة الاهمية في التأثير على الانتاج الادبي وإتاحة الفرصة الكاملة له مثل ضعف التقدم الآلي الذي حال بين الصحافة وبين الامتداد الواسع كما حدث بعد ذلك ، خاصة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ومثل ضعف السينما والاذاعة كقوتين منافستين كان لهما خطرهما الكبير في منافسة الانتاج الادبي عندما زاد انتشارهما واتسعت سيطرتهما بشكل لا يتآزر مع فلسفة امينة للحركة الثقافية الجادة بل يخضع لدوافع الترفيه والكسب المادي وحسب .

في مثل هذه الظروف قامت حركة الجيل الماضي من الادباء . كانوا يعبرون عن الاهداف العامة للمجتمع ويرسمون الاسس الخارجية للتطور ، ولم يكونوا يعكسون ما يطمح اليه ابناء الشعب في طبقاته الغالبة ، وعلى رأسها الفلاحون ، من اهداف محددة بعيدة التأثير في تكوين المجتمع . ولم يكن من السهل قط ان

يقوموا بهذا الدور دون ان يتعرضوا لضغط قاتـــل من القوى المعـادية لتطور الشعب ، ومن هنا قاموا هم بدورهم في التمهيد للتقدم الحضاري عن طريق نشر الوعي الثقافي العام حيث وجدت شروط صالحة لنشر هذا الوعي في الجامعة والمدارس والحياة العامة.

وكان هذا الجيل الكبير من الادباء يستند الى ثقـة الادارة الاجتماعية به ان لم يستند الى امكانياته المتوفرة له بالفعل . فقـد كان طه حسين يعمل في الجامعـة والصحافة وتسانده وتعترف به دور النشر الكبرى الموجودة في مصر ، وكان العقـاد يعتمد على عمل ناجح في الصحافة ، وكان توفيق الحكيم ابناً لاسرة اتاحت له اعلى فرص الثقافة في مصر وفي الخارج ثم اتاحت له امناً اجتماعياً واضحاً استطاع به ان ينضج شخصيته ويصل الى ذلك الكم الضخم الذي وصل اليه في الانتاج الادبي .

ذلك هو جيل الأمس ، وتلك هي ظروف كفاحه الثقافي ومجتمعه الذي كان يعيش فيه.. لقد كان هذا الجيل قليل الاصطدام بعقبـات رئيسية كبيرة ، وقليل التحمل لذلك العبء الذي كان المجتمع يتحمله في ذلك الحين ، وكان تقدمنا في تجاربه ومشروعاته الاولى ، تقدماً يكتشف اهدافه القريبة وشعاراته المبـاشرة . فالحرية مثـلا لم تكن قط حرية الفلاح من عبودية الارض ، ولا العامل من عبودية المصنع الرأسمالي ولا الشباب من عبودية التنافس والأحاسيس الفردية المسمومة والوقائع المادية القاسية ، بل كانت حرية اليد النظيفة التي ولدت في النور ولم تتلوث بالضغط والعمل وقلة الظروف المؤاتية للحصول على قدر كاف من الطعـام فضلا

عن القدر الكافي من الثقافة . وكان تحرر المرأة يأخذ هذا المعنى ، لم تكن تلك القضية مرتبطة بتحرر كامل للمجتمع ، فلم يرسم قاسم امين قط في افكاره عن المرأة طريقاً لتحرر المرأة الريفيـة التي لم تكن مستعبدة بالصورة التي كان يتصورها بل بصورة اخرى .. صورة لا تختلف فيها عبوديتها عن عبودية الرجل الريفي : الفلاح. لقد كانت الحرية التي ينادي بهـا قاسم امين من نصيب امرأة المدينة .. امرأة الطبقة الوسطى التي لا تتحمل التبعات الضخمة كما هو الحال في ظروف المرأة الريفية ، وذلك ما كان ينطبق على اهداف اخرى كالديموقراطية والدستور وغير ذلك . لم تتعـد اهداف تلك المرحلة الى تحديد نوع المجتمع : هل يظل مجتمعنـا زراعياً ام ينبغي ان ينتقل الى الصناعة؟ هل يبقى النظام الاقطاعي ام ينبغي ان يحصل الفلاح على حريته الحقيقية بالحصول على الارض وطرد الاقطاعيين الطفيليين الذين لا يعملون شيئاً ويأخذون كل شيء . ما هي المساواة او الديموقراطية ؟.. هل يمكن ممارستها بقوانين تحمل الامتيازات القائمة للقلة ولا تداعع عن الحقوق الضائعة للكثرة ام من الضروري ان تكون هناك مساواة حقيقيـة وديموقراطية لا فرق في نظرها بين انسان وإنسان إلا من حيث القيمة التي يمتاز بها جهده في الحياة ؟

هذه هي القضايا التي لم تطرحها الحركة الثقافية في ذلك الحين، ولم يكن في الامكان طرحها في الظروف القائمة خلال سيطرة الجيل الاول من الادباء المصريين على الحركة الادبية والفكرية لان اصحـاب هذه القضايا الحقيقيين لم يكونوا ذوي قدرة على التعبير آنذاك : كانوا مغلوبين على امرهم ، سلبيين بالضرورة

نتيجة للضغط الذي يقوم به استعمار قوي ظالم، واقطاع اخطبوطي عنيف، ورأسمالية ناشئة، وقصر ذو مطامع شريرة نفعية .

وتحمل الجيل الجديد من الادباء هذا العبء . لقد اصبح من الضروري ان يجد الشعب من يعبر عن مطالبه واحتياجاته . لقد ازدادت قوة الشعب، وخرج من سلبيته على اثر انتشار التعليم بين ابنائه وازدياد الوعي بمظالم الاعداء المستغلين وبدأت الحركة الجديدة بعد الحرب الثانية وازدادت موجتها شيئاً فشيئاً، وتغيرت اهداف الجيل الماضي ، ولم يعد الهدف الثقافي والادبي هو خلق شخصية تساوي شخصية الغرب ، وانما اصبح هذا الهدف هو خلق شخصية تسيطر على مصيرها وتستطيع ان تقول كلمة فيه .

ان هدف الكاتب اليوم هو ان يكون فعالاً لا ان يكون منتجاً وحسب ، فالحركة الثقافية الجديدة تريد ان تمد منابعها إلى حياة المجتمع المصري ابتداء من ظروفه المادية وحتى تشمل التعبير عن ردود الفعل النفسية والازمات الاجتماعية القائمة ، وتعزز الدعوة الى احترام الانسان وخلق ظروف سليمة مؤاتية وتصفية القوى التي تعمل على عرقلة تحرره واستقراره وقدرته على ان يستمتع بحياة يخلقها بجهده وبقيمه الكبيرة في التعاون والنقد الذاتي والوعي والارتباط بالتيارات البشرية التي انفصل عنها انفصالاً غير طبيعي نتيجة ظلم وتآمر واستغلال . فليست المسألة في نظر الحركة الادبية الجديدة هي مسألة كم الانتاج ولكنها في الواقع قضية نوعه من حيث ارتباطه بنتائج فعالة في الحياة العامة. فالأديب الحقيقي اليوم يتحمل اكثر من تبعة الانتاج الادبي : انه يتحمل مسئولية اخلاقية وعملية ازاء مجتمعه ، وهو يرتبط بهذا

الموقف اذا اراد ان يكون فعالاً بالنسبة للجمهور الجديد الذي يتكون من غالبية الشعب بعد ان شاعت وسائل الثقافة وبرزت اهداف الشعب بوضوح والحاح بعد ان كانت مطموسة لا ترغم رجال الفكر على الارتباط بها والتزامها .

فالحركة الثقافية عندنا بمظاهرها المختلفة تمضي اليوم في تيار جديد هو تيار الوعي الفعال الذي يساهم في تقدم الجماعة لا في تقدم الفرد وحسب . والحركة الثقافية بصورة حتمية تتحمل هذه التبعة، فقضايا المجموع الذي بدأ يأخذ دوره في الحياة اليوم هي القضايا الرئيسية الشائعة التي يطرحها الاديب والفنان والمفكر ولا يستطيع ان يتخلى عنها . والقضايا التي تشغل هذه الطبقات الغالبة في الفترة الراهنة هي قضايا سياسية واجتماعية . ولكن هذا النوع من القضايا ليس بحال من الاحوال هو القضايا النهائية بل انه نوع مؤقت سيتخلى عن مركزه الرئيسي الراهن بعد ان يحصل المجتمع على لون من الاستقرار ، وهذا النوع من القضايا ليس له خطر رئيسي على الانتاج الادبي بل انه يكوّن السماد الجديد لانتاج جديد مهما تأخر عن الظهور او كان ظهوره بطيئاً فلسوف يولد : انتاج مصري عربي لا يقل ابداً عن خصوبة انتاج الجيل القديم وان اختلف مع هذا الانتاج اختلافات جوهرية حاسمة .

فالظاهرة التي تحدث عنها الناقدان : الدكتور علي الراعي والدكتور لويس عوض ، هي ظاهرة شكلية ومؤقتة . فجهد الاديب اليوم ينصرف لخلق وعي يساعد على التقدم بل يكون

اساساً له ، كما ان اديب اليوم منصرف الى تطعيم ادبه بالنتائج التي يستنتجها من علاقاته العملية في واقعه دون الاعتماد على نتائج فكرية محضة تولد في الوعي ومن الاحتكاك بالمدارس الثقافية المختلفة في الغرب ، وقد يفوّت علينا هذا الوضع الجديد للحركة الادبية فرصة الاستمتاع بانتاج كمّي كبير ، ولكنه لن يفوّت علينا متعة الاحساس بان الادب قد اصبح ملتصقاً بحركة ايجابية تعمل على خلق انسان جديد في وطننا ، انسان يمارس طاقاته في ظروف سليمة لا استغلال فيها ولا ظلم . انسان له حقوقه المادية والعاطفية المشروعة لا تتدخل فيها يد لتوزع الحظوظ توزيعاً لا عدالة فيه ، توزيعاً يعتمد على التفرقة بين انسان وانسان دون منطق سليم ، وليس امامنا سوى طريق واضح هو ان يتحرر المجموع من الامراض الرئيسية التي تعوق تطوره حتى يتمكن الفرد من ممارسة طاقاته على نطاق سليم واسع ، وكل ظواهر الوعي لدى المجموع هي دلالة تنبيء بالمستقبل الذي نرجوه للأدب والفن في مجتمعنا .

ولن نعجز عن تبين مظاهر هذا التطور المنشود في بذورها الواعدة لدى شباب الادباء في المسرح والقصة والنقد الادبي والحركة الشعرية في تيارها الجديد . ولسوف يساعد التطور الجماعي على تنمية المواهب الذاتية ودفعها الى الابداع والخلق .

فاذا اشتغل المخلصون من ادباء الشباب اليوم بالقضايا السياسية والاجتماعية والعملية التي يخوضها مجتمعهم الآن ، وكان من نتيجة

هذا الانشغال المؤقت والطبيعي ان يقل الانتـاج الادبي والفني من ناحية الـكم فان ذلك لا خطر منه على الحياة . انهـا ممارسة حقيقية لتبعات الوعي الانساني العصري الذي يخدم التقدم ويساهم في تغيير المجتمع ونقله من المرحلة الراهنة التي يعيش فيها مضطرباً قلقاً الى مرحلة جديدة يكتمل فيها نضجه وتكتمل فيها خصائص الانسـان الحق .



في ازمة النقد الادبي

في شهري يونيو ويوليو سنة ١٩٥٧ ثارت مشكلة « النقـــد الادبي » على صفحـات المجلات والجرائد في مصر .. والواقع ان هذه المشكلة قد اثيرت من قبل ، ولكن في فترات متفـــاوتة ، وبصورة جزئية ، اما في هذه المرة فقد اخذت شكلا عاماً وتحدث فيها معظم الكتاب والنقاد في مصر .. وقـد بدأت هذه المشكلة عندما اتهم الاستاذ فتحي غانم على صفحـات مجلة « صباح الخير » نقاد الادب في مصر بأنهم لا يقومون بعملية النقد في مفهومهـــا الصحيح ، وانما هم في الواقع ينقلون ثقافة الغرب الى القـــارىء العربي وحسب ، انهم ليسوا نقـاد ادب وانما هم « مذيعو ثقافة » على حد تعبيره . وترددت اصداء الحملة على النقـد الأدبي في كل الصحف والمجلات على التقريب ، وشغلت الحياة الإدبية مدة طويلة

وما تزال تشغلها حتى الآن .

والظاهرة التي وقف عندها الاستاذ فتحي غانم وعالجها النقاد والكتاب في مصر تحتاج إلى كثير من التأمل والتفكير ، فهل ازمة النقد الادبي ازمة وهمية ام هي ازمة حقيقية ؟ واذا كانت ازمة حقيقية فهل اسبابها مردودة الى اهمال النقاد وطبيعتهم النفسية ام انها مردودة الى طبيعة العصر والظروف ؟ هل يكفينا في القضاء على هذه الازمة اذا كانت موجودة ان « نصرخ » و « ننادي » النقاد بأعلى صوتنا ان يلتزموا مقاييس الفن الصحيحة في حكمهم على الانتاج الادبي ... ام ان المسألة اصعب من ذلك وانها تحتاج الى تغيرات جوهرية في المجتمع ؟ كل هذه الاسئلة تحتاج الى اجابة وتحتاج الى تأمل وتفكير .. والحقيقة التي لم يعد أحد يستطيع ان يجادل فيها هي ان الظواهر الادبية تتأثر بالظروف الاجتماعية تأثراً واضحاً ملموساً ، وهذا التأثر ليس مقصوراً على اتجاه واحد وانما هو عام وفي اتجاهات مختلفة ، فالظروف الاجتماعية تؤثر في موضوعات الادب ، فتعرض مشاكل العصر وتبعد غيرها من المشاكل ، كما تؤثر الظروف الاجتماعية ايضاً في ازدهار الادب . .

فهناك ظروف اجتماعية معينة تساعد على هذا الازدهار وهناك ظروف اخرى تقلل منه وتفسده .. وهكذا ، فان الظروف الاجتماعية تؤثر في موضوع الأدب وفي نوعه وقيمته واتجاهه .

فما هي الحالة الراهنة للمجتمع ؟ وما هو نوع العلاقة القائمة بين الحالة الاجتماعية والظواهر الادبية ؟ ان النظرة الاولى للحياة الاجتماعية عندنا تكشف عن نوع من الاوضاع يمكن ان نسميه

بالوضع « الانقلابي » .. ان مجتمعنا يحاول جاهداً ان يتخلص من القيم القديمة والاوضاع القديمة ، والقضية الرئيسية التي تشغل مجتمعنا الراهن هي « تأمين البقاء او تأمين الوجود » . لقد كنا مجتمعاً مستعمراً لفترة طويلة ، وقد نتجت عن هذا الاستعمار اوضاع اجتماعية جعلت السيطرة على « الثروة » في يد قلة من ابناء المجتمع لم يفكروا في صالح المجموع أبداً ، بل كانوا يفكرون في مصالحهم هم ، ومن هنا اصبحت الثروة القومية مبددة ضائعة لانها لم تخضع لعملية واعية من عمليات التنمية ، بحيث تصبح مصدراً يسد احتياجات الجماعة الكبرى من ابناء الشعب ، بل كانت هذه الثروة محصورة في الاهداف والرغبات الضيقة للمجموعة القليلة التي سيطرت عليها ، لم يكن همهم ان تنمو الثروة وتتعدد منابعها حتى تكفل حاجة الشعب ، ولكن اهدافهم كانت محددة بالحصول على أعلى نسبة من الربح بأيسر قدر من الجهد ، ومن هنا خضعت الثروة القومية تحت ضغط الاستعمار وانصاره من اصحاب المصالح في مصر لظروف عطلت نموها وعرضتها للتقلص والضياع . وعندما قامت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ وتخلصت من الاستعمار والملك وخطت بعض الخطوات الايجابية في القضاء على الاقطاع ، كانت المشكلة التي تواجه الشعب المصري كله هي ان الثروة القومية لا تكفي احتياجات الشعب ولا تتلاءم مع مطالبه الحيوية . ان الثروة تعتمد على زراعة متخلفة كانت خاضعة حتى الأمس القريب لسيطرة الاقطاعيين ومن ورائهم الاستعمار ، كما تعتمد على صناعة اكثر تخلفاً واكثر ارتباطاً بالاستعمار وخضوعاً لسيطرته، فالشعب الذي

استطاع ان يخطو اليوم خطوات إيجابية نحو السيطرة على الحكم والسيطرة على الثروة القومية يواجه مشكلة رئيسية عنيفــة هي ضعف مصادر الثروة وتخلف وسائلها ، فلا بد ان تتعدد مصــادر الثروة وان تتسع وتخضع لنظام دقيق وقوانين عادلة ... لا بد ان تتسع رقعـــة الارض المزروعة ، ولا بد ان تتجدد وسائل الزراعة وان تخضع الزراعة عمومــاً لقوانين اكثر عدالة ووعياً ، ولا بد ان تتقدم الحركة الصناعيــة تقدماً كبيراً ملموساً حتى نستطيع ان نكفي احتياجاتنا وان ننمي ثروتنــا القومية تنمية سليمة حقيقية لا تنمية وهمية مؤقتة .

المشكلة الاولى التي اعترضت الشعب اذن هي مشكلة البقاء .. هي مشكلة الوجود فلا بد ان تجد هذه المشكلة حلا حتى يحصــل المجتمع على لون من الاستقرار ، فتزدهر بالتالي طاقات الانسان وتكون اكثر قابلية للابداع والخلق .. لقد اصبحت ازمة البقاء هذه شاملة لكل جوانب المجتمع ، واصبحت هي المشكلة الاولى البارزة ، وحاولنا ان نتقدم في طريق حل هذه المشكلة ، فاذا بنا امام مشاكل سياسية معقدة ، فبنــاء الاقتصاد وتنمية الثروة يحتاجان الى تنظيم جديد للسياسة التي ينبغي ان توجــه المجتمع ، فلا بد ان يكون التفكير السياسي متجهاً الى التخلص من الاستعمار وتدعيم الاستقــلال الوطني ، فالاستعمار كوضع سياسي لا يتفق مع محاولات تنمية الثروة وبنـــاء الاقتصاد بنــاء سليماً يتلاءم مع احتياجات الشعب ، ولقد اتضح تماماً ان الدول الاستعمارية لا توافق على النمو الاقتصادي لمصر ولا لغيرها من اجزاء الوطن

العربي او لاي بلد آخر من البلدان التي كانت خاضعة للاستعمار من قبل ، وقد كانت تجربتنا الكبرى هي تجربة السد العالي ، فقد طلبنا المعونة من أمريكا فرفضت ان تقدم الينا اية معونة ، وطلبنا السلاح للدفاع عن انفسنا ضد خطر واضح ظالم هو خطر اسرائيل فرفض الغرب طلبنا ، بينما واصل امداداته الحربية لاسرائيل . وبهذا دخل الشعب معركة البقاء في اول ميدان ، وكان هذا الميدان هو ميدان السياسة ، وامتدت المشكلة السياسية فشملت حياتنا كلها ، واصبحت الجماهير المختلفة مشغولة بالسياسة عن كل امر آخر من امور الفكر . فقد اتضح تماماً ان المعركة السياسية هي المظهر الراهن والرئيسي لمعركة البقاء والوجود .

انك لا تستطيع أن تفكر وانت جائع .. لا تستطيع ان تفكر وانت مريض ومهدد بالموت .. هذه حقيقة المعركة التي كان علينا ان نخوضها ، والتي كان ينبغي ان نركز كل قوانا من اجل الانتصار فيها ، ولا فرق في هذه المعركة بين القوى العقلية والقوى المادية ... فنحن نعيش في مجتمع يوشك ان ينهار ما لم تتجدد وسائل الحياة فيه ، ما لم تتجدد منابع الحياة فيه ، ما لم تتجدد علاقاته بالقوى العالمية وعلاقات قواه الداخلية .. قوى العمل والثروة والانسان ، ولا يمكن ان يزدهر الأدب في مجتمع يخوض معركة من هذا النوع ، ولكن الذي يحدث هو ان هذه المعركة تمهد لادب مزدهر ، تمهد لنشاط عقلي على غاية من القيمة والعمق لانها تمهد لانسان جديد تتوفر له ظروف الحياة السليمة ولا تختنق قواه العقلية والنفسية والمادية في اسوأ ظروف يمكن

ان يعيش فيها الانسان ، ولم يحدث في تاريخ العالم ان ازدهرت حركة ادبية وسط ظروف من الفقر والقلق الاجتماعي الرهيب ، وهناك مرحلة شائعة يضرب بهــا المثل في هذا المجال هي مرحلة الادب الروسي قبل الثورة الاشتراكية . ان البعض يرى ان الأدب الروسي في تلك الفترة قد خلق عدداً من عمالقة الادب العالمي بالرغم من ان المجتمع كان متخلفاً فقيراً خاضعاً لنظم اجتماعية بالية . والواقع ان المراجعة المتأنية لتاريخ الادب الروسي تكشف لنا عن ان الظروف الاجتماعية التي كان يعيش فيها ادباء تلك الفترة كانت تختلف كثيراً عن الظروف الاجتماعية التي كان يعيش فيها الشعب بمختلف طبقاته، فلقد كان معظم ادباء تلك الفترة – باستثناء جوركي – من ابناء الطبقة الارستقراطية او الطبقة المتوسطة .

لقد كانوا جميعاً يملكون حداً من الاستقرار والظروف الملائمة للانتـــاج الادبي ، وهذا هو الذي يحدث دائماً بالنسبة لكتاب الادب ، فلا بد ان يحصل الاديب على حد مناسب من الاستقرار المادي في حياته حتى يتمكن من الانتاج الادبي السليم ، ولا بد من ناحيــة اخرى ان توجد فئة من القراء تملك قدراً من الفراغ والرخاء مهما كانت ضآلته حتى تستطيع ان تهتم بالادب والنشاط العقلي اهتماماً معزولا بعض الانعزال عن شؤون حياتهم الاخرى المباشرة . لقد كان ازدهـار الأدب دائماً مرهوناً بحد معين من الاستقرار يحصل عليه الكاتب وتحصل عليه الجماهير القـارئة من اي نوع كانت .

ولم تخل حياتنا نفسها من الخضوع لهذا القانون الحضاري .

فعندما استقر المجتمع المصري استقراراً نسبياً بين الحربين العالميتين: الاولى والثانية ، وظهرت الطبقة الوسطى ونمت في الحياة الاجتماعية ونمت معها المدرسة والجامعة والصحف والاذاعة ازدهر الادب عندنا ازدهاراً ملموساً، وظهر جيلان عظيمان من الادباء ملآ الحياة الفكرية بانتاج خصب ودفعا المجتمع دفعة كبرى الى الامام، كان الجيل الاول هو جيل : العقاد وطه حسين والمازني والحكيم وهيكل وتيمور . وكان الجيل الثاني هو جيل : مندور ولويس عوض وسيد قطب وزكي نجيب محمود وغيرهم من اساتذة الجامعة وكتاب الصحف .. لقد ظهر هؤلاء جميعاً عندما كان المجتمع المصري يعيش في حالة استقرار نسبي استغرقت ما يزيد عن عشرين عاماً ، لم تكن هناك ثورات اجتماعية شاملة ، ولم يكن هناك ذلك التوتر العام الذي يفكر تفكيراً واسعاً في تغيير الجذور واعادة البناء وخلق فلسفة جديدة وظروف جديدة للحياة ، كانت مرحلة معرفة واكتشاف ، كانت مرحلة تريد ان تحدد المعالم الاولية للطريق ، وتطل على حضارة العالم بشتى الوسائل وعلى رأسها وسيلة الفكر ، وكانت الثقافة المتأثرة بالغرب في تلك المرحلة ثقافة تقدمية جديدة دافعة الى امام، فلم نكن نعرف المسرح معرفة دقيقة ، ولم نكن نعرف التفسيرات الجديدة للكون ، ولم ندرك المناهج الجديدة للمعرفة ، فقد كنا نمثل مجتمعاً يعيش في افكار قديمة عن الحياة والطبيعة والانسان ، وكان معظم هذه الافكار مستمداً من الدين بصورته الجامدة المتخلفة التي صنعها الجهل وصنعتها الظروف القاسية التي كان يعيش فيها المجتمع المصري

والعربي عموماً تحت ضغط الاستعمار التركي .. لقد كان الاستعمار الغربي خطوة متقدمة عن الاستعمار التركي ، كان استعماراً يحمل حضارة وثقافة .. وكانت تلك المظاهر الحضارية والثقافية جديدة علينا تماماً في ذلك الحين بل كانت متقدمة كل التقدم عما كنا نعيش فيه من ظروف وعما كنا نخضع له من افكار ..

وقد انتهت مرحلة الاستقرار المؤقت التي شملت مجتمعنا واستمرت مسيطرة عليه حتى بعد الحرب الثانيه ، انتهت هذه المرحلة وانتهى معها اخذنا عن الغرب النظم السياسية والثقافية والحضارية اخذاً عاماً لا يخضع لمقياس ولا لضابط .. انتهت هذه المرحلة عندما تطلع الفلاح والعامل والموظف الصغير والطالب الى الحياة، وعندما ادرك هؤلاء جميعاً ان هذه الحياة حقهم ما داموا يعملون ويبذلون الجهد والطاقة.. وعندما انعكس احساس هؤلاء بالحياة في مطالب محددة ابتدأ المجتمع يضطرب ، وابتدأ يمر بدور المخاض ، لانه على وشك ميلاد جديد .. لقد كان من الضروري ان نقضي على الاستعمار ، وعلى الاوضاع الاجتماعية التي استنفدت وظائفها كالاقطاع والمنافسة التجارية التي لا تخضع لقانون انساني ، وسيطرة الاجانب على ثروتنا القومية واستخدامها حسب مصالحهم لا حسب مصالحنا نحن .

هذا هو الجديد الذي يمر به مجتمعنا في الظروف الراهنة ، انها مرحلة « ثورة » و « انقلاب » .. مرحلة « ايجاد » .. لا مرحلة « استقرار » و « ثمرات نهائية ناضجة » .. مرحلة الدفاع عن البقاء وخلق وسائل معقولة لهذا البقاء .. ومن شأن مثل هذه المرحلة

ان تتركز فيها – تلقائياً – كل القوى من اجل الدفاع عن القضية العاجلة ، ولا بأس في معركة الدفاع عن هذه القضية العاجلة ان تتلوث ثيابنا ، وان نحمل السلاح بدلا من ان نحمل القيثار ، وان تصبح كلماتنا موجزة او متشابهة ما دمنا في معركة واحدة عاجلة سريعة نستطيع بعدها ان نعود الى البيت وقد امنّا من الخطر واصبحنا نملكه ونستطيع ان نعيش فيه .. يمكننا بعد ذلك ان ندخله وان نجد الوقت والفراغ والجهد لكي ننظم هذا البيت ونجعل منه مسكناً جميلا نبيلا يثير في النفس اعذب المشاعر . ولا بأس ان تكون جدران حجراته مزينة بلوحات تصور لنا الطبيعة وتصور لنا النفس البشرية .. فاننا في هذه الحالة نستطيع ان نتأملها ونحن آمنون من طلقات الرصاص او طعنات الاعداء المحيطين بنا .

ان المشكلة السياسية تشغل قوانا الفكرية ، لانها هي ابرز معركة نخوضها اليوم من اجل البقاء . ولقد تأثرت حياتنا الفكرية كلها بهذه المشكلة ، فخضع الكاتب لتأثيرها ، وخضع القارىء لتأثيرها ، واصبحت كتابة الادب الخالص مشكلة صعبه ربما لا يستطيع ان يتوفر لها كاتب ، واصبحت قراءة الادب الخالص هواية لا تميل اليها معظم الجماهير القارئة المشغولة بتتبع المشكلة الاولى في حياتها وحياة الاجيال التالية ، فلا بد ان يكون الادب مرتبطاً بحياة القراء ومشاكلهم حتى ولو كان ذلك على حساب القيم الجمالية في بعض الأحايين .

كل ذلك لا يعني ان حركة النقد الادبي عندنا خامدة ميتة ..

كلا بل هي قائمة وموجودة بشكل عميق الا انها لا تظهر في حياتنا ظهوراً قوياً نتيجة للظروف التي اشرنا اليها ، واحب ان اشير هنا الى عدة نماذج في حياتنا الادبية وفي مجال النقد بالذات. فلقد كتب الدكتور مندور خلال السنوات الثلاث الاخيرة ما يقرب من عشر دراسات نقدية قيمة عن تطور الشعر العربي في مصر ومدارسه الجمالية والفنية المختلفة ، ومعظم هذه الدراسات تعتمد على المقاييس النقدية الخالصة وقد لا تعرض للجوانب السياسية والاجتماعية في المشاكل الادبية المعروضة ...

ظهرت هذه الكتب النقدية القيمة في السوق واذكر منها : « المسرحية الشعرية عند شوقي » و « الشعر المصري بعد شوقي » و « خليل مطران » و « ولي الدين يكن » و « اسماعيل صبري » ... ماذا كان موقف الجمهور القارىء من هذه الدراسات النقدية الخالصة التي تعتمد على المقاييس الادبية والفنية لنقد الشعر ومحاولة تذوقه ؟ .. ان الجمهور لم يقبل على هذه الكتب اقبالا كبيراً ، وربما لم يهتم بعض الكتاب الذين تحدثوا عن ازمة النقد عندنا برؤيتها او بالكتابة عنها . لقد لقيت هذه الكتب اهتماماً في الاوساط الادبية المتخصصة وحسب ، اما اهتمام القراء فلم تحصل عليه تلك الكتب بالرغم من قيمتها « النقدية » الملحوظة .. اما النموذج الثاني فيتمثل في انتاج الدكتور لويس عوض ، فقد اخرج دراسات نقدية هامة تشرح قضايا الادب على ضوء المنهج الواقعي الجديد الذي يؤمن به الدكتور لويس اشد الايمان ، وقد قامت دراسات الدكتور لويس عوض على اساس دقيق من الثقافة

الناضجة والتمثل العلمي الواعي للمشاكل الادبية التي يتحدث عنها، والتزم الدكتور لويس منهجاً علمياً صارماً في ابحاثه الادبية، وحسبنا ان نشير الى كتابين لهذا الكاتب يتمثل فيهما اتجاهه النقدي اما اولهما فهو « دراسات في الادب الانجليزي الحديث ». واما الثاني فهو ترجمته لملحمة « برومثيوس طليقاً » للشاعر الانجليزي « شيلي » فقد قدم الدكتور لويس ترجمته بدراسة نقدية تاريخية واسعة للحركة الرومانسية .. ماذا كان مصير هذه الدراسات النقدية العلمية ؟ لم يهتم بها غير المتخصصين ايضاً، بل ولم تتح الظروف للدكتور لويس ان يستمر في ممارسة عمله هذا، اذ اضطر آخر الامر ان يقف وجهاً لوجه امام الجماهير القارئة التي تهتم بمشاكل اخرى تمس كيانها كله، مما اضطر الدكتور لويس إلى ان يغير في اسلوبه ويهتم بموضوعات معينة حتى تستطيع مواجهة المطالب العاجلة للجمهور القارىء، وهو يؤدي هذا الدور بصدق وعن ايمان فيما نعتقد .

النموذج الثالث الذي نريد ان نقدمه هو دراسة سيكولوجية ناضجة لعملية الابداع الفني قدمها الدكتور مصطفى سويف تحت عنوان « الاسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة » .

وتعتبر هذه الدراسة من انضج الدراسات الجمالية والسيكلوجية في تاريخنا المعاصر كله، انها تفتح امامنا بقوة واصالة باباً جديداً من ابواب المعرفة النقدية، وهو باب يؤدي بنا الى كثير من الحقائق الدقيقة العميقة .. ومع ذلك فقد كانت هذه الدراسة النقدية ذات اثر محدود، اذ لم تشع الا لدى المتخصصين من الطلبة

والمدرسين وقلة من المثقفين العرب .

نموذج اخير يتمثل في الكاتبين الاستاذين محمود العالم وعبدالعظيم أنيس . لقد بدأ هذا الكاتبان نشاطهما في مجال النقد الادبي أول الامر ولكن سرعان ما تطورت بهما الظروف الى العمل السياسي والكتابة السياسية حيث اخلصا اخلاصاً ملموساً واضحاً للحركة السياسية وتجاوزا بنسب متفاوتة كل المقاييس الفنية والنشاط النقدي في مجال الادب .

علام يدل هذا كله ؟ انه يدل دلالة واضحة على ان المطلب الرئيسي للعصر والمشكلة الاولى العاجلة التي تواجه القارىء والكاتب ليست هي الانتاج الادبي ، ولكنها مشكلة الدفاع عن الانسان في معركة البقاء . لقد اكتشف الكاتب ان الفكرة العميقة هي الفكرة الايجابية ، هي الفكرة التي تؤثر في الحياة وتؤدي الى نتائج فعلية لدى الناس .. واكتشف ان مسؤوليته تملي عليه ان يهتم بالمشكلة العصرية للانسان حتى يكون ايجابياً وحتى تكون هناك علاقة تربط بينه وبين القارىء .. واستطاع الكاتب بالطبع ان يكشف على الفور ان الانسان في مجتمعنا يحتاج الى الاطمئنان والرخاء والاستقرار ، حتى يتمكن من ممارسة نشاطه الفكري والانفعالي ممارسة ناضجة ، وان مطالب الانسان الرئيسية تتعثر في ظروف قاهرة قاسية لا بد من القضاء عليها اولا حتى يتاح لهذا الانسان الحصول على حد ادنى مستقر من مقومات الحياة . وكثير من كتابنا اليوم ليسوا معزولين عن مشاكل الانسان في بلادهم ، كلا بل لقد وقعوا هم انفسهم في هذه المشاكل . انهم

يواجهون ايضاً - كأفراد - أزمة المجتمع في جانبها الاقتصادي ، فالمجتمع المتخلخل الذي يبحث عن ارض يستقر عليها قد وضعهم ايضاً حيث اصبح مصيرهم مرهوناً بمصير ابناء وطنهم . لقد دخلوا الميدان ، ولم يعد هناك وسيلة للتراجع ، ولذلك فان ظاهرة اهتمامهم بالسياسة ليست ظاهرة مفتعلة بل هي ظاهرة طبيعية تدل على مدى استجابتهم السليمة لمطالب العصر ، ولما يعرض له من مشاكل .

ان منابع النقد الادبي عندنا تتجدد اليوم تجدداً أصيلا ، ومصادر المعرفة النقدية تتجمع ايضاً ، فهي تربط نفسها بالمعرفة الاجتماعية والمعرفة النفسية والمعرفة التاريخية دون ان تتوقف عند حد المعرفة الفنية وحسب . والنقد الادبي يكتسب ابعاداً جديدة حتى يصبح لوناً شاملا عميقاً من الوان المعرفة بالنفس البشرية وبالطبيعة وبالفن بحيث يتحول النقد الى لون من الوان « الفلسفة » التي تزيد وجدان الانسان غنى وثراء . ولكن المرحلة الراهنة تفرض على الحركة النقدية ان تظل محصورة في مجالات خاصة والا تمتد وتزدهر في صورة مثمرة ملموسة ، فان ذلك مرهون باستقرار المجتمع ، واشاعة الرخاء النسبي في حياة الناس ، حتى يوجد ذلك القارىء الذي يملك من الفراغ ما يمكنه من قراءة الادب كوسيلة من وسائل الادراك الوجداني للحياة وتذوقها بعمق وفهم ، وحتى يوجد ذلك الكاتب القادر على التفرغ لانتاج عميق يكتشف جديداً في النفس البشرية وفي الطبيعة والعلاقات الانسانية.. ولا شك ان الفنان المصري والعربي بوجه عام موجود

وهو يؤدي رسالة ايجابية ، ولكن الظروف الراهنة تحول بين الطاقات المبدعة وبين الانطلاق والتحرر .

فعلى كاهل الانسان في بلادنا اعباء رهيبة وعاجلة .. لا بد ان تقل وان يتغير نوعها بعض الشيء فلا تصبح اعباء يومية مباشرة تقتل فيه روح التأمل والملاحظة والابداع وتذوق الحياة .

من هذا كله نستطيع ان نخرج ببعض النتائج الرئيسية ، واولى هذه النتائج هي ان أزمة النقد الادبي موجودة حقاً ولكنها ليست ناتجة عن اهمال النقاد او عدم تحملهم للمسؤولية ، وانما يرتد وجودها في اصوله العميقة الى الظروف القلقة التي يمر بها المجتمع وتعكس نفسها بصورة واضحة على اهتمامات القارىء والكاتب على السواء ، واذا ما كانت نظرتنا لهذه الظروف القلقة التي يمر بها المجتمع نظرة تفاؤل بمعنى اننا نحس ان وراء هذا القلق استقراراً وتقدماً ، فهو قلق يعبر عن تغير وخطوة الى الامام لا قلق يعبر عن فوضى في النفس والنظام الاجتماعي ... اذا كانت نظرتنا اليه مثل هذه النظرة ، فاننا نستطيع ان نحس ان الحركة الإدبية تمر بدور جديد وانها سوف تزدهر ، وان الانقباض السائد في الحياة الفكرية ليس الا ظاهرة عارضة سوف تكشف عن القوى الحية التي تعمل في صمت واصالة وتكشف عن القوى الجديدة القادرة على العمل والابداع . ومن هذه النتائج ايضاً ان المجاملة الادبية لبعض الانتاج الفني في الشعر والقصة لا يمكن ان تدفع بعمل أدبي الى الانتشار ما لم تتوفر الموهبة الناضجة لصاحبه ، وكثير من الانتاج الادبي الذي يفتقر للموهبة المبدعة قد لقي الاهمال من

القراء ، وكان هذا الاهمال حكماً نقدياً مقياسه الذوق والفطرة على مثل هذا الانتاج . ومن هذه النتائج ان هناك الى جانب الظروف الرئيسية للأزمة النقدية ظروفاً اخرى تعمل على ايجاد ازمة في النقد والثقافة على السواء .

فالصحافة التي تفرض السرعة والايجاز والطرافة تقضي على العمق ولا تتيح فرصة للاعمال الجيدة الدقيقة ، كما ان دور النشر الكبرى ما زالت في معظمها خاضعة لاهداف تجارية خالصة مما يسد الطريق على الانتاج الادبي الذي لا يضمن ربحاً واسعاً ، وقد لا يضمن ربحاً على الاطلاق . ولكي نكون اكثر صراحة نستطيع ان نقول ان دور النشر الجديدة لم تختلف اختلافاً جوهرياً عن دور النشر القديمة ، فبالرغم من ان دور النشر الجديدة تقدم للقراء انتاجاً اكثر معاصرة الا انها ما زالت تخضع للقوانين التجارية التي كانت الدور القديمة وما زالت تخضع لها .

ولو اننا بدأنا في تواضع من نقطة البدء الطبيعية ، وحاول الكتاب الذين يكتبون عن ازمة النقد ان يقدموا في صبر وجد نماذج نقدية ، وان يحاولوا تتبع الحركة الادبية متابعة جادة واعية ، وان يلتمسوا الاسباب الحقيقية للظواهر بدلاً من التماس الجوانب الطريفة والسريعة في هذه الظواهر ، وان يهاجموا بصدق وشجاعة عوامل التخلف الادبي في المؤسسات الثقافية من صحف ودور للنشر .. لو حاول هؤلاء - وما اكثرهم - ان يفعلوا ذلك لاستطعنا ان نكشف عن حقائق اكثر ايجابية وقيمة ، لاستطعنا ان نساهم في دفع الحركة الادبية الى الازدهار وان نساهم في تقدم الانسان والقضاء على عوامل التخلف في النفس والمجتمع والثقافة .

اخبار اليوم... ايضاً [1]

يحدث احياناً ان يختلف الاخوة في البيت الواحد والمواطنون في القرية الواحدة ، ويبلغ الاختلاف في بعض اللحظات حداً عنيفاً قاسياً .. وتأتي لحظة معينة تتلاشى فيها الخلافات وتعود النفوس فيها الى لون من الصفـــاء والمودة والتعاون ... ولا تأتي هذه اللحظة العظيمة التي يلتئم فيها شمل البيت المختلف او القرية المتنافرة الا نتيجة لعامل خارجي يستثير ما في النفوس من تفاهم كامن وما في القلوب من مودة عريقة ...

ويختلف هذا العامل قوة وضعفاً حسب الظروف ... ولكن هناك عاملا واحد يفوق كل العوامل ، ويصل الى اعظم النتـائج بين الاخوة في البيت الواحد ، والمواطنين في القرية الواحدة هذا

---

(١) راجع الفصل الاول : مصر والثقافة الاميركية .

العامل هو وجود خطر شامل ، خطر عـام .. خطر يهدد البيت بكل من فيه ، ويهدد القرية بكل من فيها .. في هذه اللحظـة يشعر الاخوة ان الخلاف بينهم لا محل له ، وان التعاون ضروري وطبيعي لانقاذ البيت من الخطر الداهم الذي لن يبقى على واحد دون الآخر . ذلك لانـه يهدد كيان البيت من الاساس .. وكذلك يفعل المواطنون في القرية الواحدة عند ما يلوح لهم ذلك الخطر العام الذي يهدد حياتهم كلهـا .. انهم يتناسون الخلافات ويسارعون الى التفاهم والمودة والتعاون .. وذلك مـا يحدث في الوطن الكبير وما يحدث في الاوطان المتجـــاورة.. فذلك هو القانون الانساني : الخطر العام يوحد بين الاجزاء المتناثرة المبعثرة، يحدث بينهما لوناً عميقاً من الانسجام والتوافق .

وذلك هو مـــا حدث في تاريخنا القريب ، عندما توحدت صفوفنا بشكل نادر عبقري اثناء العدوان علينا.. توحدت صفوفنا في مصر .. وتوحدت صفوفنا في الوطن العربي كله ، فيما عدا بعض الخيانات البسيطة التي لا يخلو منها عمل انساني يعتمد على الجماعة ...

ولست مبالغاً اذا قلت ان خطر اسرائيل هو اكبر العوامل التي نبهت فينا « الشعور بالقومية العربية » ، ذلك الشعور الذي كان ضائعـــاً او خافتاً من قبل .. ذلك الشعور الذي لم يكن موجوداً في بعض الأحايين، والذي وجد في أحايين اخرى ولكن بلا هدف .. لقد اصبح موجوداً اليوم في وضوح وقوة ، واصبح هدفه ان تتوحد البلاد العربية كلهـا ازاء الخطر الموجود : خطر اسرائيل ، وازاء اخطار اخرى من هذا النوع توجد في الحاضر

او يمكن ان توجد في المستقبل .

وقد كنت في فترات سابقة اشعر بالكراهية العميقة وبشدة الخلاف بيني وبين بعض الآراء الشائعة في مصر والمؤسسات القائمة على اساس من تلك الافكار ، سواء كانت هذه المؤسسات صحفاً او دور نشر او دور تجارة .. وعندما قامت الثورة وبدأنا ندخل معاركنا الحقيقية شيئاً فشيئاً وبلغنا في طريق كفاحنا حد الاصطدام العنيف المباشر مع القوى الاستعمارية ... في هذه المرحلة من كفاحنا ، وخاصة بعد معركة بور سعيد ، نسيت كراهيتي لتلك المؤسسات التي كنت اكرهها ، واصبحت لا اذكر سوى شيء واحد هو اننا مصريون عرب نواجه خطراً موحداً رهيباً شاملاً ؛ وينبغي ان نكتل كل قوانا وننسى خلافاتنا السابقة بل ونصفيها نهائياً لنكون على مستوى المعركة التي نخوضها دفاعاً عن بلادنا ضد خطر موحد لا يكف عن تركيز قواه والاستعانة باعوانه أينما وجدوا .

ومن المؤسسات التي اكن لها كثيراً من البغض والكراهية مؤسسة « اخبار اليوم » .. ذلك لانني كنت احس مع كثير من المواطنين ان هذه الدار تهدف الى التعاون مع اي قوة تضمن لها الربح حتى ولو كان ذلك على حساب مصلحة المواطنين ومصلحة البلاد .

وجاءت معاركنا المتعددة منذ قيام الثورة حتى اليوم وبدأت انسى كراهيتي لتلك المؤسسة المصرية ، وانتظر ان تكون الاخطار التي تحيط بالبلاد دافعاً يدفع هذه الدار الى ان تكف

عن انحرافها حتى تلتزم مصلحة مصر والعرب ..

وكانت الايام تمر ، ولكنني كنت ازداد احساساً بان هذه الدار لا تريد ان تتخلى عن ماضيها بحالٍ من الأحوال .. لا تريد ان تمضي في طريق وطني شريف ..

كل يوم تخرج هذه الدار في صحفها المختلفة بدليل على انها ما تزال مؤمنة بماضيها حريصة عليه وحسبي ان اقدم للقراء العرب نموذجاً يهمنا جميعاً .. وقد اثار هذا النموذج ابعد ما في نفسي من سخط قديم على هذه المؤسسة الصحفية .. وهو نموذج واحد له كل يوم اكثر من شبيه .. وقد اخترته لانه متصل بنا جميعاً في شتى اجزاء الوطن العربي .. اخترته للدلالة لا للحصر ... انه نموذج يدلنا على مدى حرص هذه الدار المصرية على مصر والعرب ، انه نموذج يكشف الى ايّ حد يتآمر البعض على القضية الوطنية العربية ، بالرغم من ان هذا « البعض » يعيش على ارض عربية ، يعيش على خيرات مصر وبين قلوب ابناء مصر .. بالرغم من هذا فانه لا يوجد لديه وازع من امانة او ضمير يحول بينه وبين الإساءة لقضية الوطن في مثل هذه الظروف الحاضرة ، وامام هؤلاء الاعداء المتكتلين المتعاونين .

كان ذلك يوم ٦ مايو سنة ١٩٥٧ .

وفي ذلك اليوم خرجت الصحف المصرية كلها تزف الى الوطن العربي اخباراً وضاءة عن سوريا .. فقد كانت معركة الانتخابات التكميلية دائرة في سوريا .. وكانت معركة رهيبة مخيفة .. يعرف

ابناء الوطن العربي اطرافها .. ويعرفون معنى ان تنتصر القوى المعادية في الدوائر الاربع التي دارت فيها الانتخابات .. لقد كان ذلك يمثل خطراً على سوريا والعرب !

وخرجت جريدة الاخبار في ذلك اليوم لتضع في صدرها عناوين ضخمة لاخبار جانبية عادية، بحيث لا تستطيع على الاطلاق ان تكشف الخبر الصغير الذي كتبته الجريدة عن نتائج انتخابات سوريا في عمود جانبي وفيما لا يزيد عن عشرة اسطر ضائعة تائهة توحي بان الخبر لا اهمية له ... اما العناوين الكبرى التي ظهرت في صدر الجريدة فهي : « اعتقال ضابط سويسري بتهمة التجسس لحساب — مراسلو صحف العالم يشهدون الانتخابات في مصر — اجازة للجامعات والمدارس يوم الانتخابات » وكل هذه الاخبار تافهة عادية وبعضها معروف قبل ان تنشره الجريدة ، وقد نشرت هذه الاخبار في شتى الصحف المصرية في ذلك اليوم دون ابراز او اهتمام ، ذلك انها اخبار لا خطر لها ولا دلالة على الاطلاق ... كانت اخبار سوريا هي اخطر الاخبار في ذلك اليوم .. وكان الواجب الوطني لكل الصحف هي ان تشعر قراءها بتلك الحقيقة ، حقيقة الامر في سوريا ، ونجاح الوطنيين في الانتخابات .

هذه هي المظاهر الواضحة الحاسمة التي تتكرر كل يوم ، وتمتد من الخبر الى الرأي الى الصورة في شتى صحف هذه الدار : اخبار معاركنا مع الاعداء تطمس وتضيع وسط ركام من الاخبار اليومية العادية التي لا خطر لها .

انني اطالب بتأميم « اخبار اليوم » وتحويلهـــا الى مؤسسة وطنية يشرف عليهـا كتاب ومفكرون مخلصون لقضية الوطن مؤمنون بحقوق المواطنين العرب ـ ان مصر تعتز بصلابة جبهتها الداخلية .. فلا تدعوا في هذه الجبهة ثغرة قد تدخل منهـا اسوأ الاخطار عن طريق تسميم ثقافتنا وافكارنا وقضايانا الوطنية .



فهرست

صفحة

من سلسلة ذاكرة الكتابة

98- علم التاريخ .... هرنشو - ت. عبد الحميد العبادى

99- قصة الفكر الغربى أفكار ورجال .... كرين برنتن - ت. محمود محمود

100- المدنية والإسلام .... محمد فريد وجدى

101- الأبطال .... توماس كارليل- ت. محمد السباعي

102- ١١ يوليه وضرب الأسكندرية .... عباس محمود العقاد

103- حياة محمد (ص) .... إميل درمنغم

104- 107 قناة السويس ج١، ج٢، ج٣، ج٤ .... د. مصطفى الحفناوى

108- ذكريات اللواء محمد صالح حرب .... ت: د. أحمد حسن محمد الكنانى

109- قضايا جديدة فى أدبنا الحديث .... د. محمد مندور

110- روح التربية .... تأليف: جوستاف لوبون - ت: طه حسين

111- الثقافة والثورة .... محمود أمين العالم

112- قادة العلوم .... هنرى توماس -دانالى توماس

113-115 - مذكرات في السياسة المصرية١، ج٢، ج٣ .... د. محمد حسين هيكل

116- الف ليله وليله .... د. سهير القلماوى

117- على باب زويلة .... محمد سعيد العريان

118- حياة مجاور فى الجامع الأحمدى .... محمد عبد الجواد

119- ماكيا فللى وكتاب الأمير .... ترجمة: محمد مختار الزقزوقى

رقم الإيداع: ١٩٤٧٩/ ٢٠١٠

الترقيم الدولى: 978-977-704-318-2